
مكتبة بغداد
@BAGHDAD_LIBRARY
ج.ج.ع.ح
المركز القومى للترجمة
ألبير قصيرى
ألوان العار
ترجمة: منار رشدى أنور
مراجعة: منى على كمال صفوت
1761
سلسلة الإبداع القصصى

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبرسنة ٢٠٠٦ بإشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 1761
- ألوان العار
- ألبير قصيرى
- منار رشدى أنور
- منى على كمال صفوت
- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة رواية:
Les Couleurs de l'infamie
Par: Albert Cossery

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤- ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 2735426 Fax: 27354554

ألــــوان العـــار

(روايـــة)

تــألــيف: ألـــبــير قصـــيـــرى
تــرجمة: مـــنار رشـــدى أنـــور
مراجعة: منى على كمال صفوت



2011

رشدى، سناء.

ألوان العـار: رواية/ سناء رشـدى. ـ القـاهرة:

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١ .

١١٦ص ؛ ٢٠سم.

تدمك ٨ ٨١٨ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص العربية.

أ ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٠٩٦/ ٢٠١١

I. S. B. N 978 - 977 - 421 -818 - 8

ديوى٨١٣

(١)

حشود البشر، الهائمة على وجهها على إيقاع تسكع صيفى لا مبال فوق الأرصفة غير المستوية لمدينة القاهرة العتيقة، بدت وكأنها قد تكيفت، بسكينة بل وبشىء من السخرية اللاذعة، مع تدهور البيئة المستمر الذى لا رجعة فيه. وربما تحدثنا أنفسنا بأن مجمل هؤلاء الجسورين، المتنزهين تحت الحمم الجارفة لشمس منصهرة، متواطئون بتسامح، فى تجوالهم الذى لا يكل، مع العدو الخفى المقوض لقواعد وأساسات عاصمة كانت منارة فى الماضى. تلك الجماهير التى لا تؤثر فيها المأساة ولا حتى الحزن أشبه بسيل بشرى جارف يحمل معه عينات متنوعة من البشر أصابتها البطالة بالسكينة: عمال عاطلون، حرفيون بلا زبائن، مفكرون خاب أملهم فى بلوغ قمة المجد، موظفون إداريون مطرودون من مكاتبهم لعجز فى عدد المقاعد، خريجو جامعات رازحون تحت وطأة علمهم العقيم الذى لم يؤت ثماره. وأخيرًا، الهازئون الأزليون، هؤلاء الفلاسفة المحبون للظلام والعتمة ولهدوئهم، الذين يرون أن هذا التدهور المشهود لمدينتهم قد صمم خصيصًا لشحذ حاستهم النقدية. وقد

التصقت بهؤلاء السكان المحليين، ومارست نوعًا من الترحال المدنى المتسم بالطرافة المفجعة، زمر من النازحين القادمين من كل المحافظات والمشبعين بأوهام حمقاء عن ازدهار عاصمة تحولت إلى بيت للنمل. وفى هذا الجو المختل بوحشية، كانت السيارات تندفع وكأنها بلا سائق، غير مبالية بإشارات المرور حتى يبدو للمترجل، الذى تخالجه نفسه بعبور الطريق، أنه مقدم على عمل انتحارى. وعلى جانبى طرق رئيسية متدهورة بفعل الصرف الصحى اصطفت بنايات آيلة للانهيار والتداعى (صرف مالكوها عن أذهانهم منذ زمن بعيد أى شعور بالزهو والتباهى لملكيتهم إياها) تحولت أسطحها إلى أماكن إيواء مؤقتة، تبرز منها ومن شرفاتها هلاهيل البؤس الملونة كما لو كانت أعلام انتصار. كان تهالك هذه المساكن يثير صورة مقابر المستقبل ويعطى الانطباع فى هذا البلد ـ الذى هو فى المقام الأول سياحى ـ بأن كل هذه الأطلال المعلقة قد أكسبتها التقاليد قيمة الآثار فغدت محرمة بحيث لا يمكن أن تمسسها يد. وفى بعض الأماكن، يؤدى انفجار ماسورة مجارى إلى تكون مستنقع بعرض النهر، يتكاثر فيه الذباب وتتصاعد منه أبخرة عفنة تزكم الأنوف. أطفال عراة، بلا حياء، يلهون بتلطيخ بعضهم البعض بهذه المياه الآسنة وهو أسلوبهم الأوحد لمقاومة الحر. عربات ترام مكسوة بعناقيد البشر ـ كما لو كنا فى يوم ثورة ـ تشق طريقها زاحفة فوق قضبان مكدس عليها آلاف الرعاع المزعجين المتمرسين منذ زمن على إستراتيجية البقاء. دهماء. لا يثنيهم عن عزمهم شىء ولا يغريهم هدف بعينه، يذللون بإصرار كافة العقبات والشراك التى تعترض طريقهم ويواصلونه بين منعطفات هذه

المدينة التى يحاصرها الانهيار وسط أبواق السيارات والغبار والقمامة والوحل دون إبداء ولو أدنى بادرة عدوانية أو إشارة احتجاج. فمجرد شعورهم بأنهم لا زالوا أحياء قد أعدم فيهم الرغبة فى أن يأخذوا أى شىء آخر فى اعتبارهم. ومن بعيد حملت مكبرات الصوت أصوات الدعاة الواقفين على أبواب المساجد كما لو كانت أصداء قادمة من العالم الآخر.

كان تأمل الفوضى هو أكثر ما يثير سعادة أسامة. يتكئ بمرفقيه على سور الكوبرى الذى تحوط أعمدته المعدنية ميدان التحرير ويجتر أفكارًا تتناقض جل التناقض مع الخطب التى يرددها بعض المفكرين المعتمدين ويؤكدون فيها أن دوام البلاد رهن باستمرار النظام، والمشهد الماثل أمام عينيه يدين بلا هوادة هذا التأكيد الغبى. وهو يستخدم منذ حين هذا البناء، المصمم من قبل حفنة من المهندسين الإنسانيين لإنقاذ المشاة البائسين من مخاطر الشارع، كمرصد بانورامى لترسيخ اعتقاده الشخصى بأن العالم يمكنه الاستمرار فى العيش بلا نهاية فى جو من الفوضى واختلال النظام. وفى واقع الأمر فإنه رغمًا عن هذا المزيج المشوش والمعقد الذى يهيمن على الميدان الفسيح، لم يكن يبدو أن هناك شيئًا ما قادرًا على أن يشوب حس الجماهير الفكاهى، ولا استعدادهم القوى للتهكم. كان أسامة على قناعة بأنه ما من شىء أكثر فوضوية من الحروب ورغم ذلك فهى تستغرق سنوات طويلة ويحدث أن ينتصر قادة مشهود لهم بالغباء فى بعض معاركها. فالصدمة فى جوهرها عنصر أساسى فى تولد المعجزات! كان

مفتونًا بعيشه وسط جنس من البشر لا يستطيع أى مصير ظالم أن ينال من طلاقتهم ومرحهم. فبدلاً من أن يستشيطوا غضبًا ضد الصخب الذى تفرضه عليهم مدينتهم المتدهورة تدهورًا مخيفًا، كانوا يسلكون مسلكًا مرحبًا ومتحضرًا كما لو كانوا لا يعيرون أدنى اهتمام لأشكال الإزعاج المادية التى لا يمكنها إثارة الحزن إلا فى النفوس الحقيرة. هذا الموقف الكريم والمترفع بإباء كان يدهش أسامة لتعبيره عن عجز المواطنين إخوانه عن إدراك المأساة.

كان شابًا فى نحو الثالثة والعشرين من عمره. جماله ليس آسرًا وإن كان له وجه ساحر، وعينان سوداوان تبرق فيهما ومضة سحرية دائمة كما لو كان كل ما يراه ويسمعه من حوله هزليًا حتمًا. يرتدى ببساطة لا مثيل لها بزة من الكتان الأصفر اللون وقميصًا من الحرير الخام تزينه رابطة عنق أحمرها زاهٍ وحذاءً بُنيًا من جلد الآيل. هذا المظهر غير المتناسب مع القيظ لم يكن مرجعه ثراء شخصيًا أو ميلاً إلى المفاخرة بل مجرد التزام بتقليص مخاطر مهنته. كان أسامة لصًا. ليس باللص الشرعى كالوزير أو رجل البنوك أو رجل أعمال بلا ضمير أو مضارب أو متعهد بناء، بل كان لصًا متواضعًا، دخله عشوائى وأنشطته - بلا شك لمحدودية ربحيتها - تعتبر دائمًا ومن كافة الأوجه بمثابة قدح للقاعدة الأخلاقية التى وضعها الأغنياء. ولأن الله حباه بهذا الذكاء الواقعى الذى لا يدين به لأساتذة الجامعات فقد فطن سريعًا إلى أنه لو ارتدى زيًا أنيقًا مثل سالبى أرزاق الشعب المعتمدين لأتاح لنفسه الإفلات من نظرات الشرطة المتشككة التى ترى أن كل شخص ذى

مظهر بائس ما هو سوى مشبوه. ما من أحد يجهل أن الفقراء قادرون على كل شىء. فمنذ أزمنة سحيقة وهذا هو المبدأ الفلسفى الذى تتبناه الطبقات الثرية وتكفله. أما أسامة فكان يرى فيه مبدأ شائنًا منشؤه الخداع. فلو كان حقًا باستطاعة الفقراء القيام بأى شىء لكانوا قد أصبحوا بمثل ثراء واشيهم ويستخلص من ذلك أنه لو كان الفقراء لا يزالون على حالهم فهذا مرجعه، بمنتهى البساطة، أنهم لا يعرفون كيف يسرقون. وقد عانى هو شخصيًا - وقتما كان يعيش كمواطن نزيه ومتقبل للفقر كمصير محتوم - من الشكوك التى كانت تثيرها ملابسه الرثة لدى التجار وأفراد الشرطة بليدى الذهن. وقد انتابه الشعور بأنه مجروح إلى الحد الذى لا يجرؤ فيه على الاقتراب من بعض أحياء المدينة التى يبزغ فيها الأثرياء خشية أن يؤخذ ذلك على محمل أنه سيئ النوايا. فهو لم يتخذ قراره بأن يصبح لصًا ويتبنى لهذا الغرض وبحذافيره كافة الصفات الجلية لرؤسائه فى الطائفة إلا فى وقت لاحق وبعدما وعى تمامًا حقيقة هذا العالم. ونظرًا لارتدائه الزى المناسب منذ ذلك الحين، بات بوسعه - وبلا مشقة - ارتياد الأوساط الفخمة التى يسترخى فيها عادة أساتذته فى النصب وسرقتهم بدوره بأناقة وفى أمان تام. هذه السرقات الصغيرة لم تكن تمثل بحق إلا استردادًا هزيلاً للمبالغ الهائلة التى كان يكتنزها هؤلاء المجرمون معدومو الضمير ضاربين عرض الحائط ببؤس الشعب. ويتعين القول أن طموح أسامة لم يكن يتمثل قط فى أن يكون له حساب مصرفى (فهذا ذروة الفعل المشين) ولكن فقط فى استمرار البقاء فى مجتمع

يهيمن عليه قراصنة دون انتظار لثورة محتملة مؤجلة دومًا إلى الغد. كانت روحه المرحة تجعله أكثر قابلية للمزاح والدعابة منها لضروريات انتقام أسود وبعيد المنال.

اعتقد أنه قد أعجب بما يكفى بأداء إخوانه المواطنين فى التخلص من الفوضى. وكان قد همّ بمغادرة مرقبه عندما جذب انتباهه - الباحث دومًا عن تفصيل مبهج - مشهد تدور أحداثه فى مخبأ يستخدم كمحطة ترام. كانت زمرة من السيدات الممتلئات الأجسام والمحملات بعدد لا يحصى من القفف والصرر يتجاذبن أطراف الحديث مع رجل لم يزل شابًا قوى البنية يرتدى فانلة ممزقة من كل مكان وقطعة قذرة من قماش ملفوفة حول خصره، وهو فى ذلك أشبه بتمثال أكاديمى يرمز للبؤس. أولئك الحوريات العملاقات كن قد هبطن لتوهن على ما يبدو، من إحدى عربات الترام وقد بدا أنهن يعقدن مساومات غريبة مع هذا الرجل ذى الرداء المختزل. وقد حال للأسف بعد المسافة والضوضاء المحيطة دون سماعها. ركز أسامة فكره على محاولة تخيل طبيعة هذه المحادثة عندما انتهت فجأة وبصورة غير متوقعة. وإذا به يرى هذا الرجل يأخذ تحت حمايته مجموعة الإناث الفزعة وسط هذا السيل الجارف من السيارات المداهمة وهو يرفع ذراعه إلى السماء كما لو كان يبتهل إلى الله ويسير بهن فى موكب على الطريق وسط صخب أبواق السيارات حتى وصل بهن إلى ملاذ أحد الأرصفة. وبعد وصول الناجيات إليه ولم يمسسهن ضر قامت كل واحدة منهن بفك عقدة منديلها وأعطت قطعة نقود لمنقذها؛ الذى ما إن التقط

أنفاسه حتى بدأ يعرض خدماته على العديد من المشاة الآخرين المترددين على حافة الرصيف وقد أصابتهم الدهشة من هول ما فعل. وشعر أسامة بفكاهة هذا المشهد الفريد من نوعه. عابر شوارع!! مهنة جديدة تفوق فى جرأتها مهنة السارق، إذ تنطوى على خطر الموت المحقق؛ علاوة على أنها لم ترد قط على خاطره فى أكثر توقعاته جموحًا لعبقرية شعبه. الرجل الذى ابتدع هذه الوظيفة المذهلة من أجل الوقوف على أسباب العيش يستحق بجدارة إعجابه وصداقته الأبدية. كان يود لو هنأه أو حتى أرسل كتابه للحكومة لمطالبتها بتقليده وسام استحقاق بوصفه نموذجًا لجيل جديد من العاملين. فهذا المكتشف لوظائف لم يستخدمها عاطلو العاصمة الغارقة حتى الآن، يستحق بلا جدال ميدالية. إلا أن أسامة كان فاقدًا الثقة فى كل هؤلاء الوزراء غير الشرفاء الذين كانوا يعقدون اجتماعاتهم فى الحكومة ولم يكن بمقدورهم البتة تقدير أى مبادرة لا تقدم لهم حيلة من شأنها إثراؤهم. وعليه، قرر أن يتركهم على جهلهم بمثل هذه الظاهرة الأخاذة.

رمى بنظرة أخيرة على الرجل ذى الملابس الرثة، نظرة أخوية حانية توجه بعدها إلى السلم المؤدى إلى شارع طلعت حرب، هبط درجاته بحذر بالغ (فالسلم مغطى بطبقة سميكة من التراب الذى قد يتلف حذاءه) فوجد نفسه على الرصيف الأيمن الذى يغمره الظل فى هذه اللحظة. وسرعان ما سرى فى أوصاله شعور رقيق ناعم لملامسته هواء دافئًا ولزجًا وإن كان منعشًا مقارنة بجهنم التى خرج منها توًا. بدت له ملابسه أخف ثم اتخذ مظهر الشاب العاق

واللامبالى كى يندس فى وسط الجماهير. كان يسترق السمع نهمًا لأحاديث المارة العابرين على جانبيه ويلتقط بمر الكرام أقوالاً لا تصدق تضج بلا توقف بالسخرية وبالطعن فى تسلسل السلطة الحاكمة لتكون خير شاهد على هذا الخليط من الوقاحة والغرور الذى يمنحه البؤس لمن يصطفيهم بتجرع كأسه. كان يبدو ـ من سماعه لهم ـ أن كل متحدث يفخر بنسله الفرعونى. كان صبو هؤلاء المعدمين إلى نبل وهمى يأسر عقل أسامة أسرًا رائعًا؛ فلقد كان يرى فى أوضح مظاهر العدم دليلاً دامغًا على العظمة. وبطول الشارع، محال تجارية تعرض فى واجهاتها تشكيلات المجتمع الاستهلاكى، مجتمع لم يزل محدودًا للغاية وإن كان عاقدًا العزم على الاستفادة من أعمال سلفه. فيها كنا نرى كافة أنواع الأجهزة المنزلية الكهربائية وأجهزة الراديو والتليفزيون والفيديو وثلاجات وحُليًا باهظة الثمن وأثوابًا لا تحصى من الأقمشة الحريرية والسجاد الفارسى وأدوات الزينة النسائية من آخر صيحة وسيارات الليموزين الفارهة ذات مقابض الكروم البراقة ومكاتب السياحة ـ وياللغرابة ـ التى تعرض مناظر لمناطق ثلجية فى شكل من أشكال الاغتراب العكسى. كان القسم الأعظم من الجماهير على ما هو عليه من اللامبالاة تجاه هذه الفخاخ المستوردة فى غالبيتها من الخارج من أجل إرضاء شره قبيلة من آكلى لحوم البشر. ولم يكن يتوقف لتأمل هذه الأشياء المشوشة للفكر إلا ما ندر من الأفراد بدافع من الإرهاق أو من الفضول الطفولى وهم يتساءلون عن مدى حماقة هذا القدر الذى جعلهم على هذه الدرجة من البؤس فى بلد بمثل هذا الثراء.

كان المقهى المتعدد الجنسيات والذى كان يدين بشهرته - فى زمان غير الزمان - إلى المستوى الاجتماعى والفكرى لزبائنه قد أصبح يشهد اليوم غزوًا من جمع من الناس بلا وضع مميز ويتدهور ببطء نحو التهميش والخزى. كان المقهى قد فقد شرفته الرائعة - التى سحقها، رويدًا رويدًا وعلى مر السنين، زحف المارة الأهوج - حتى أنه لم يعد يحتفظ سوى ببضع موائد فى عطفة قصيرة للغاية تعجز عن إغواء الجوابين. جلس أسامة إلى إحدى موائد العطفة المحتمية من الجماهير. طلب ليمونادة من النادل وأخذ فى مراقبة الرصيف المقابل الذى يرتفع فيه مبنى عتيق لم يزل يحمل بعض ملامح أسلوبه الهندسى الفخم مثله مثل إحدى الغانيات التى أفناها العجز وتحمل رغم التجاعيد آثارًا طفيفة لجمال منزوٍ. وإحقاقًا للحق، لم يكن هذا المبنى المتهالك - الذى يمثل رفاهية الماضى - يحمل شيئًا مسليًا ليجذب انتباهه اللهم إلا بوابته من الحديد المطروق والمفتوحة على مصراعيها والتى تحمل لوحة من الرخام الأسود مكتوب عليها بحروف مذهبة «نادى الأعيان» معلنًا بذلك للعامة أنه لا يقبل الرعاع من بين أعضائه. وكم من مرة استخدم فيها أسامة عرين الأرستقراطية التجارية هذا كمصدر لاستردادات فردية مثمرة. وكما يتضح من يافطة النادى، فإن أعضاءه لم يكن يميزهم الثراء المشبوه فحسب بل كانوا يحملون بداهة فى محافظهم قسمًا منه. وكان أسامة يجد لزامًا عليه سرقته من خلال تلامس غير ملحوظ. كانت العملية مسلية ويسيرة وإن كان يضاف إليها أيضًا اللذة التى يستشعرها

اللاعب الذى أبدًا لم يكن يعرف مطلقًا هوية ضحيته المقبلة أو قيمة المبلغ المسترد. وفى حقيقة الأمر فإن أسامة كان يعد لصًا تافهًا إلى حد ما. فشغله الشاغل هو الجانب الطريف والغامض للمغامرة أكثر منه مكسبها المادى. كان مفهومه الساخر والواهم للسرقة يضعه فى معزل عن الموقف المتشائم والقلق للسارق العادى. وقد أصابته بالجزل الأخلاق الحمقاء للأثرياء. كان وهو منتشٍ فرح - يرصد مدخل النادى كما لو كانت ستبزغ منه المرأة الإلهية الجمال والشهوانية التى يتخيلها الرجال العاطلون فى أحلامهم الجنسية.

لم يظهر فجأة إلى جانبه هذا الطراز للمرأة المثالية ولكن شابة تبلغ بالكاد سبعة عشر ربيعًا. وقالت بصوت خجول يشبه الشكوى:

-

هل بوسعى الجلوس معك؟

كان أسامة يعرف نبرة الصوت هذه. واستدار لرؤية الفتاة الشابة الواقفة أمامه: هيفاء وهشة فى ثوبها القصير من القطن المطبوع وحليتها الرخيصة تتلألأ تحت أشعة الشمس. تملكه الذعر لبرهة من الوقت؛ فهذه الفتاة الدخيلة سوف تفسد مخططاته وتقوده إلى حديث لغو مؤثر من شأنه الإضرار بتفاؤله. لكنه سرعان ما ابتسم قائلاً بمزاج المحب المجروح من عدم تفهم محبوبته له:

بالطبع، بإمكانك الجلوس يا سفيرة. لماذا كل هذه الشكليات معى؟! حقًا، إنك تؤلميننى.

أنا لا أود إزعاجك.

إنك لا تزعجيننى أبدًا. بالله عليك، ألا تعرفين ذلك؟

جلست الفتاة وقد غمر عينيها شعور مفاجئ بالامتنان. كنا نشعر أن رؤية أسامة تمثل سعادة بالنسبة لها بل وربما السعادة الوحيدة.

وجهها بزينته غير الصارخة، ينضح، لشحوبه، إفراطًا فى سوء التغذية وحياة معقدة انعدمت فيها كل مظاهر الجاذبية. لم يكن لهذا الوجه المعبر عن ألم الفقر المدقع بل - وبالأخص - عن الاستسلام والخزى، أى تأثير مغرٍ على أسامة، إلا أنه ظل يظهر الود والتعاطف تجاه الفتاة. لم يكن يجهل أنها تقلب فى ذهنها، وعلى مختلف الأوجه، مشروعًا عاطفيًا يستهدفه شخصيًا، يحاول اتقاءه باتخاذ مظهر إنسان ضال وبلا مستقبل.

وفجأة، صاحت سفيرة مندهشة كما لو كانت تعبر عن انتشائها أمام معجزة:

هذا أمر لا يصدق. لقد كنت على يقين من لقائك عند مغادرتى المنزل اليوم. أليس ذلك مدهشًا؟

إننى مبتهج بمثل ابتهاجك. بإمكانك أن تصدقينى القول. إننى أبارك الصدفة التى وضعتنى على طريقك. قالها أسامة وهو يشعر بالارتياب فى أن الفتاة قد جابت المدينة بأكملها بحثًا عنه.

وبتبنى أسامة لهذه اللهجة المبالغ فى ودها، لم يكن يفكر إلا فى إقامة جو من الألفة الأمينة والعطوفة بينه وبين الفتاة. إلا أن هذه المحَبَة المشوبة بالمكر - رغم مغالاته فى ادعائها - كانت تسهم -

وياللأسف ـ فى تشجيع سفيرة على مواصلة بحثها المتواضع عن حب متبادل. كانت تعيش مع أمها فى أعماق بدروم بحى شبرا فى عزلة تامة وفقر مدقع. لم تكن سفيرة تمتلك تحت تصرفها، من أجل الحصول على القروش القليلة اللازمة يوميًا لبقائهما فى الفوضى إلا الوسائل الوحيدة التى تقدمها أنظمة التجويع إلى طبقة البروليتاريا؛ أى إما المثابرة فى البحث عن وظائف لا وجود لها والموت جوعًا وإما ممارسة البغاء بأى ثمن، فلقد كانت لا تزال بالغة السذاجة حتى تقدر منحة جسدها حق قدرها. كان أسامة قد ضاجعها ليلة لقائهما الأول وطالبته جزاء ذلك بمبلغ حقير إلى الحد الذى أصابه بالارتباك والدهشة لانعدام الشراهة المادية لدى عاهرة ـ فالعلاقات الجنسية شبه المجانية تخفى حتمًا فخًا. وقد امتنع منذ ذلك الحين عن تجديد لحظات الضلال هذه دون أن يدفعه ذلك إلى رفض صداقة تلك الفتاة. كانت تبدو متعلقة به تعلق الغارقة بالقشة ـ وإن كان أسامة يرى نفسه فى هذه الحالة أضعف بكثير من القشة. فربما كانت تراه من منظور المنبوذ البائس بمثل بؤسها. كانت تعلم من الشاب أنه لص. إذن، فهو على طريقته محتقر من المجتمع ويعيش على هامشه وهذا ما كان يبدو لها، من منظور منطقها كفتاة جاهلة، بمثابة العنصر الأساسى لعلاقة غرامية. كان ارتضاؤها للاستسلام يصدم أسامة ويؤثر سلبًا على نفسيته، ونظرتها المليئة بكم هائل من المرارة المشوبة بلوم متراكم يصيب فيه بالشلل أى رغبة له فى الضحك. وفى واقع الأمر فإن مشاعر التعاطف التى كان يكنها لهذه الفتاة الشابة، كانت تحول

دون رؤيتها من زاوية السخرية وترغمه على أن ينظر إليها على أنها واقع ينكر حتمًا مأساويته. أحيانًا، كانت تترك نفسها على سجيتها مع ما يقتضيه عمرها من شطحات ومداعبات. ولكن سرعان ما كان الوجوم يكسو وجهها على نحو مفاجئ وتأخذ مظهرًا شبه شارد كما لو كانت تبزغ فجأة فى ذاكرتها، وبكل تفاصيلها الحقيرة، صور مأساوية من حياتها لتسدل أستارًا معتمة على هذه البرهة الخاطفة من فورة الشباب.

لم يتوقف أسامة ـ وهو يهنئ الفتاة على هيئتها ـ عن أن يرصد بطرف عينه مدخل النادى على أمل منه ألا ينتهى يومه مثلما بدأ فى جو من الفراغ والكآبة. لم تنطو هذه الحيلة البتة على سفيرة التى همت بالقيام وهى تردد بلهجة متواضعة كما لو كانت مشوبة بالألم: ـ

إنك تنتظر حتما شخصًا ما. لذا سوف أغادر المكان. ربما سنحت لى الفرصة لرؤيتك مرة أخرى.

أستحلفك بحياة أمك، ابقى مكانك. فأنا لا أنتظر أحدًا.

بالمناسبة، طالما نتحدث عن أمى يمكننى القول إنها تحبك جدًا جدًا. لقد قالت لى بالأمس إنها تدعو الله بأن يحفظك وبألا يوقفك البوليس أبدًا. ألا ترى فى ذلك كرمًا من جانبها؟

كيف ذلك؟ أتحدثتِ عنى لأمك؟

عندما سألتنى عن مصدر زوج الأحذية الجميل هذا ـ وهنا مدت ساقيها فى الهواء وجعلت زوج الأحذية المزين بإبزيم من المعدن

المطلى بالفضة يضوى فى عتمة العطفة ـ لم أتمكن من منع نفسى عن الاعتراف بأنك أنت من أهدانى إياه. أنت لست غاضبًا منى أليس كذلك؟

واعترفتِ لها أيضًا بأنى لص؟

لا تغضب. أنت تعرف أن عقل أمى قد بات مختلاً بعض الشىء بسبب الحياة التى تعيشها منذ وفاة والدى. إنها لا تفرق بين المهن. كما كان باستطاعتى أن أقول لها إنك صيرفى. هذا سيان بالنسبة لها.

اللهم احفظنا! إذن، لماذا لم تقولى لها إنى صيرفى؟ سألها أسامة بصوت هادئ وإن شاب الغضب نبرته.

لا أعرف ـ قالتها سفيرة وهى تئن كما لو كانت تكبح جماح دموعها. ربما لأننى كنت فخورة بك، فأنت الحرامى الوحيد الذى أعرفه.

لم يسألها أسامة إذا كانت تعرف العديد من الصيارفة. إذ ظل مذهولاً أمام قدرة الفتاة على الالتفاف حول الأمور البديهية. هذه البائسة سوف تسوقه مباشرة إلى المشنقة لو لم يتمكن سريعًا من الخروج بنفسه من هذه الورطة التى أوقع نفسه فيها عندما ارتكب خطأ الكشف لها عن طبيعة نشاطه. كان التعاطف هذه المرة أيضًا هو المسئول عن هذه القصة المؤسفة. لقد اشترى لها هذا الزوج من الأحذية يوم أن أثارت مشاعره بقوة عندما جاءت لمقابلته بحذاء مهلهل من القماش. وقد اقترنت هذه المشاعر بفكرة ماكرة ألا وهى

أنه بشرائه لسفيرة زوجًا من الأحذية من الطراز الجذاب فذلك قد يتيح لها - عند عقدها لصفقاتها الغرامية - المطالبة بمبلغ يتناسب مع تميزها. كان آسفًا، فى الوقت الحالى، على هذا الفعل السخى الذى كان بوسعه أن يتوقع بفضله شيئًا من الامتنان إلا أنه قد تحول إلى تهديد لحياته المهنية. فلن تلبث كل قوات البوليس فى العاصمة أن تعرف أدق تفاصيل هذه الحيلة الماكرة عن طريق هذه المحبة المخبولة. ولن يجديه عندئذ شيئًا ارتداء الزى الأنيق لاصطناع المحترمية لو لم يقمع، وهى بعد فى مهدها، هذه الدعاية السيئة. بالطبع، لم يستغرقه هذا التفكير المرير إلا لبضعة تنهدات وأبدًا لم ينل من قناعته بأن الإنسان الذكى لا يجد شيئًا مأساويًا على وجه تلك الأرض. كان علم الأخلاق السمح والمرح الذى يتبعه يباعد بينه وبين أى استعداد للكراهية. وضحك فى أعمق أعماقه لتصوره أنه قد روى للفتاة أنه لص بدافع من يقينه بأن هذا الإسرار سيصرفها عنه. إلا أن هذا البوح - عوضًا عن عدم إبعادها عنه - لم يؤد إلا إلى الإعلاء من شأنه فى نظر سفيرة وهى التى قد تولدت لديها القناعة - من نماذج الشخصيات البالغة الثراء التى تحظى بشعبية كبيرة فى الصحف - أن مهنة السارق مرادفة لتبؤ المركز الاجتماعى المرموق. لم تكف عن ملاحقته بل وزادت عمدًا من لقاءات الصدفة ومن النظرات الغضيضة المختلسة. ولما كان أسامة خبيرًا فى العقلية النسائية، فلقد اضطر إلى قبول فكرة أنه قد أخطأ بشكل حقير. فحتى أغبى الأغبياء يعلم أن النساء تصم أذنيها عن أى اعتبار أخلاقى عند اعتقادها بالوقوع أسيرة للحب.

ظل صامتًا لبرهة من الوقت وابتسامة ساخرة تائهة على شفتيه كما لو كان يهزأ من نفسه.

ولما كانت سفيرة لا يمكنها أن ترى فى هذا الصمت وفى تلك الابتسامة إلا نقداً صامتًا لها؛ فقد عمدت إلى التماس مغفرته وهى تقول بصوت به شىء من الرجفة: -

ربما ارتكبت خطأ فادحًا. اغفر لى.

لا، الأمر ليس خطيرًا بالمرة. لا تقلقى بالنسبة لى وعلى العموم، فإن أمك تبدو لى شخصية عاقلة للغاية اشكريها نيابة عنى على دعواتها. من يدرى فلربما احتجت إليها.

أتعنى جديًا ما تقوله عن أمى؟

لتعلمى أن الشخص الذى لا يقيم أدنى اختلاف بين الصيرفى واللص لا يمكن تصنيفه مجنونًا. هذا هو المعيار الأوحد لتقييم الصحة الذهنية لفرد ما. هو دون سواه.

إلا أنه سُهى عليه أن يكشف للفتاة أن هذا المعيار من ابتداعه هو. ورغم أنها دومًا قد صدقت أسامة فى كل ما يقول إلا أن هذا التقييم للجنون القائم على معيار مخل إلى هذه الدرجة فى تبسيطه قد بدا، رغم ذلك، غير كاف لسفيرة من أجل تقدير حالة والدتها النفسية؛ فاستفسرت منه بعصبية: -

أواثق أنت من ذلك؟

بشرفى. أقسم أسامة بهذا القسم وقد وضع يده على صدره لإثبات مصداقية تشخيصه.

هذا يدعونى للشعور بالغبطة. كنت أخشى أن أراها تصاب بالخبل التام. لقد أثلجت صدرى.

استشف أسامة شعورًا حقيقيًا بالارتياح على وجه الفتاة وتأججت فى نفسه الرغبة فى أن يلقن هذه المستجدة النموذجية مفهومه عن الحياة. بيد أن جذوة هذا الشعور لم تدم إلا لبرهة من الوقت؛ فقد بدا له تعميم مفهوم مخرب لهذا الحد لصالح مخلوقة لا يرجى منها شىء كسفيرة أشبه بمن يهدى اللآلئ لعجوز محتضرة.

واستطرد قوله بلهجة من يروح عن نفسه بالحديث:

قولى لى. أتتحدثين كثيرًا مع أمك؟

كان أسامة يرمى أساسًا إلى تغذية حواره مع محدثته وعدم إعطائها الانطباع بأنها تصيبه بالملل. وفى واقع الأمر فإن مآسى الفتاة كانت تستهويه رغمًا عنه، كما لو كانت كافة أشكال الظلم التى تعانى منها - وهى ميراث لأسلاف من عهود سحيقة - قد استمدت جذورها من بلدان بعيدة وليس من الوسط المحيط بها مباشرة. فمنذ ارتقائه لجنة اللصوص، لم يعد ينصت للغناء النائح للشعب المستسلم ولا لصرخات ذلك الشعب الذى لا يزال يؤمن بأسطورة وجود جنة سماوية. كان الإنصات لسفيرة يعنى بالنسبة له الاستماع إلى الصدى الواهن، وإن كان لم يزل مليئًا بالحيوية، لأزمنة سحيقة كان هو نفسه يئن تحت وطأة نصرة الغش والخداع. كان يأمل - دون الاعتراف بذلك لنفسه - فى أن يستمع إليها تشكو وتئن ليفتح بذلك

أمام قلبه دروب طفولته التى ضل عنها بكل ما فيها من مواكب البؤس والعار التى جعلتها حكمته المبتكرة لا تعدو عن كونها مجرد أحداث طارئة تافهة. إلا أن توقه المبهم لاستشعار حنين الماضى لم يصرف انتباهه عن شغله الشاغل الرئيسى وهو بوابة النادى التى كانت أمواج المارة ـ فى رواحها وغدوها ـ تحجب عنه رؤيتها بشكل متقطع. لم يكن قد لاحظ حتى ذلك الحين إلا الخدم فى زى التشريفة وهم يتناوبون الخروج إلى الشارع لاستنشاق هوائه البالغ السخونة ولإلقاء نظرة لوم على موكب المنبوذين من النادى فى سيرهم اللاهى تحت أشعة الشمس. مما لاشك فيه أن أعضاء النادى ـ السادة النبلاء ـ كانوا منهمكين فى فتح شهيتهم بتجرع مشروباتهم الكحولية المفضلة وقتما يقومون بتدبير صفقات مشبوهة جديدة. إلا أن موعد الغذاء كان يقترب وأسامة يعرف أن أيًا من أولاد الكلب هؤلاء لا تفوته وجبة واحدة؛ فلقد كان انتفاخ كروشهم هو همهم الأكبر الذى يتفانون من أجله بكل ما لديهم من كفاءة وأمانة.

نعم. أتحدث مع أمى. ولكن ليس كثيرًا؛ فإننى أعانى لرؤيتها تخلط كل الأمور فى أحاديثنا. فى النهاية؛ أشعر وكأننى قد أصابنى الدوار.

فيم تتناقشان؟

استغرقت سفيرة فى التفكير لبرهة من الوقت ثم نظرت لأسامة بجرأة غير معهودة وقالت له بلهجة شبه ساخرة: –

فيم يتحدث الفقراء من وجهة نظرك؟

كانت ضربة أسفل الحزام. مناورة خادعة من جانب الفتاة أصابت أسامة فى مقتل من سوء تصرفه. كان متيقنًا من أن هاتين المرأتين لن يكون بوسعهما التحدث سوى عن المال ـ وبخاصة عن نقص المال ـ فما لبث أن اتخذ قراره بأن يغلق سريعًا باب الحوار فى هذا الموضوع الشائك بعبارة مداعبة.

ـ إننى أعلم علم اليقين أن الفقراء لا يستطيعون إلا التحدث عن المال وإن كان هذا لم يحقق الثراء لأى شخص قط.

وهنا أطلق ضحكة ودودة لتشجيع الفتاة على اتباعه فى سبيل مرحه.

ولكن سفيرة رفضت الضحك بعناد. وعلى النقيض من ذلك، جاء تهكم أسامة فى غير موضعه ليزيد من حزنها على استهتار الشاب بالفقر. وقالت له: -

أنا لا أعبأ بالمال فلا قيمة له بالنسبة إلى؛ إذ ما فائدة المال لو كانت الحياة خالية من بعض الحب؟

أطرقت الرأس واتخذت مظهرًا جامدًا وكسا وجهها شعور بالخوف كما لو كانت تنتظر وقوع زلزال. لم يكن أسامة مخدوعًا. كان من اليسير عليه أن يفهم أن هذه الرسالة تخصه وأن عليه التظاهر بأنها ليست مرسلة إليه. كان المكر الأنثوى ـ حتى وإن كان مصدره هذه المراهقة التى بلغت بالكاد أعتاب الأنوثة ـ يمتعه دائمًا،

فهو سلاح هش أقصى ما يستطيعه هو ختل السذج والبلهاء. ورغم كل شيء، تأثر باعتراف الإحباط هذا وأمسك بيد الفتاة في حركة ودية مواسية. ومن جديد، بدا له التعاطف الذى يستشعره تجاه رفيقته نقيصة يخشى منها للغاية على حريته.

هل تتحدثين عن الحب مع أمك؟

مع من تريدنى أن أتحدث؟ إنها الشخص الوحيد الذى أستطيع البوح له بأسرارى. فهى على الأقل تنصت إلىّ.

أعجب أسامة بحيلة الفتاة التى كانت تهاجمه دون ذكر اسمه مع علمها التام بأنه قادر على التعرف على نفسه من خلال هذا التلميح إلى لا مبالاته، ومن خلف مظهر الضحية البريئة الذى كانت سفيرة تعطيه لمن حولها، نزعت إلى استخدام مكر بنات جنسها لإيقاع أسامة فى تلافيف مكيدة حقيرة. ولكن كيف له أن يغضب منها؟ فكل هذا لم يكن إلا ثرثرة بلا أضرار دائمة. كان مرجع تسامحه إزاء تلميحات هذه المحبة اللحوحة هو حداثة سنها وانعدام تأثير أساليبها الخداعية. فما لم يكن له أن يطيقه من امرأة بالغة، كان يتقبله عن طيب خاطر من هذه الفتاة التى كانت تتخذ منه حقلاً تجرب فيه عدم التروى والتعقل وتداخل الأمور التى يعزوها أبرز علماء النفس إلى الغموض الأنثوى. ولما كان أسامة لم يكتشف أبداً أدنى غموض لدى أية امرأة، فإن حيل سفيرة لم تكن عادة تثير فيه أى شعور بالحيرة وإنما فقط إحساس مبهم بالشفقة إزاء الحماقة السائدة فى كل ما حوله. وبدافع من الطيبة البحتة وحتى لا يثير أحزان الفتاة من رفضه الدائم للفهم أبدى احتجاجه قائلاً لها:

ولكنى أنا أيضًا أنصت إليك.

هذا صحيح. فأنت بالفعل تنصت إلىّ ولكن ذلك للتهكم علىّ؛ فعندما قلت لك منذ عدة أيام إننى أبحث عن وظيفة نصحتنى بعدم البحث عنها لأن سوء حظى قد يجعلنى أعثر عليها - وبعد ذلك انفجرت فى الضحك.

فمن كثرة رؤية سفيرة له وهو يضحك كلما وصفت له بعضًا من مظاهر حياتها الكئيبة، كانت قد رسمت له صورة مطابقة لموقفه اللامبالى؛ أى صورة لكائن أنانى وعابث ومستخف بآلام الآخرين. وعلاوة على ذلك، وحتى لا تأخذ هى مظهر المعارض لهذه النزعة الحيوية للتجديف، كانت تحاول أحيانًا أن تسخر من مآسيها ربما بدافع من الفكرة الخرافية التى تتمثل فى طرد سوء الحظ.

ثم قالت بابتسامة مفتعلة:

إننى أزعجك بحكاياتى. حدثنى بالأحرى عن مآثرك، إنها بالتأكيد أكثر إمتاعًا من أحاديثى مع أمى. إننى أود فعلاً أن أصبح لصة أنا أيضًا ولكنى للأسف لا أملك شجاعتك وأعتقد أنه لو حدث لألقى القبض علىّ حتى من قبل أن أقوم بالمحاولة.

فتصنّع أسامة السأم وأجابها قائلاً:

- اسمعى ياسفيرة. إنك مخطئة؛ فأنا لست شجاعًا بالمرة. عندما قلت لك إننى لص، كنت لا أقصد إلا الدعابة. إننى آسف لانخداعك بها. يجب ألا تأخذى كل ما أقوله على مأخذ الجد.

امتعض وجه الفتاة بشكل مخيف كما لو كان قد باح لها بخيانة لا تغتفر؛ فمهنة الشاب القذرة كانت قد حملتها على الاعتقاد بأن سقوطها لا يمثل حجرة عثرة فى طريق العلاقات الغرامية بين كائنين أصابهما البؤس بنفس القدر من الانحلال. ولكن، إذا لم يعد أسامة هذا اللص الذى زعم أنه هو، كيف له أن يقع فى غرام مومس حقيرة ضيقة الأفق؟ وبعينين مغرورقتين بالدموع، نظرت إلى الشاب كما لو كان مرتدًا تحول إلى عدو طبقى.

ما الذى أصابك؟ قالها أسامة وفى صوته نبرة ندم.

هل صدمتك؟

التزمت الفتاة الصمت، بدافع من الحياء أكثر منه بسبب الغضب الذى كان يخنقها. لم يكن بوسعها أن تفسر لأسامة أن كذبته تحرمها من النعمة الوحيدة المجانية التى منّ الله بها على البؤساء فى هذه الحياة الدنيا. وأخيرًا قالت بمرارة..

أهكذا! كانت دعابة.

لقد قلت لك ذلك على سبيل المزاح. إننى آسف ـ ولكن لا تحولى الأمر إلى مأساة. فبالعكس، عليكِ أن تبتهجى لمعرفتك بأنى لست لصًا.

مم أبتهج؟ إذا لم تكن لصًا فكيف لك أن تخالط (لم تقل «تحب») فتاة مثلى. فأنا قبل كل شىء عاهرة.

إنى أضرب عرض الحائط بمن تكونين. فهل رفضت يومًا مرافقتك؟ حتى لو قتلتِ شخصًا ما، ستكونين دائمًا بالنسبة لى محترمة للغاية. بل على العكس، سوف يزيد ذلك من تقديرى لك.

لا أريد أن أقتل أحدًا.

إنك مخطئة؛ فهناك الكثير من الناس الذين يستحقون القتل. ومنذ عدة سنوات، كنت لا أحلم إلا بالقضاء على غالبية هؤلاء الأوغاد. ولكننى الآن أود لو امتد بهم العمر؛ فهم مبعث ضحكى.

أيمكنك أن تقول لى من هؤلاء الأوغاد؟

سوف تعلمين يومًا ما وقد لاتعلمين أبدًا. على كل حال، يمكنك تصديقى؛ فهم موجودون بل حتى يتكاثرون فى العالم كله.

بدت سفيرة مضطربة بل ومفزوعة من هذا التأكيد الغامض. ورغم اعتيادها على نزوات أسامة إلا أن تحامله على أشخاص مجهولين بالنسبة إليها قد أغرقها فى خضم أعلى درجات اللَّبس.

وفجأة تحول رفيقها الشاب المتشامخ الساخر الهازئ إلى شخص غير مسبوق يتبنى عقيدة دموية. وبعد ادعائه للّصوصية، ألن يتوارى الآن وراء قناع القاتل؟

حسبى الله! أنا لا أفهمك. كل ما تقوله يصيبنى بالحيرة. إنك تهزأ من كل شىء ولا يبدو أن شيئًا يقلقك. أراك ترتدى زى الأمراء ورغم ذلك تسير حافى القدمين وسط العامة دون خشية الاتساخ. ألديك تفسير لهذا السر؟

إذا كنت ـ فى رأيك ـ أبدو فى هيئة الأمراء فهذا لميراثى عن والدى كل بِدله بعد وفاته. هكذا فسر أسامة مظهره بهدوء الكاذب المتمرس ـ كان موظفًا كبيرًا مما كان يستوجب منه عناية غير منقوصة بثيابه ـ وإكرامًا لذكراه، رغبت أنا أيضًا فى الالتزام بنفس هذا المظهر المحترم حتى لا يخيب ظنه فى قبره. يشق علىّ الحديث عن هذا الموضوع وإن كنت لم أتردد فى إطلاعك عليه حتى تستوضحى كل شىء عنى.

بدا عليه الحزن الذى يفرضه المرء على نفسه عند استرجاعه لذكرى بعض الأموات. بدت الفتاة الشابة راضية ظاهريًا عن تفسيره، إلا أن الحزن ظل مرتسمًا بعمق على وجهها؛ فمصدر أناقة أسامة لم يغير فى شىء من وضعها كمحبة تعرضت للخيانة. لقد بدا واضحًا بالنسبة لها أن لحظات اللهو وممارسة الإغراء قد انقضت. كانت اللباقة تقتضى منها ترك الشاب يستحضر وحيدًا ذكرى أبيه، هذا الموظف الكبير ذى البدل المفصلة تفصيلاً رائعًا، الذى كان قد ظهر فجأة فى حديثهما ليظل شبحه يسيطر عليها. وقالت وقد مطت شفتيها فى برطمة فزعة:-

حسنًا، سوف أتركك الآن. وآمل أن أراك مرة أخرى.

بالطبع. مرحبًا بكِ دائمًا.

كان أسامة قد استعاد تفاؤله. كان سعيدًا بروايته الزائفة حول مصدر بزاته وهى رواية قد يستخدمها من جديد فى مواقف أخرى وتبدو مقبولة حتى لشرطى متبلد العقل. ترك الفتاة الشابة تأخذ

أهبتها للرحيل ليجول بنظره فى هذه الجماهير التى كانت لم تزل غفيرة بحثًا عن ثغرة فى هذا الحائط البشرى تمكنه من أن يلمح المدخل الواسع للنادى. كان حدسه ينبئه بأن يومه هذا يرصد له هدية رائعة كنوع من المكافأة على هذا الحديث الحميمى المضنى مع الفتاة.

أما هى، فقد نهضت ببطء كما لو كانت لا تريد صرف أسامة عن تخيلاته، ثم هرعت فى خفة لتنتقل من ظلام العطفة إلى شمس الشارع وحليها الزهيدة الثمن تضوى لمرة أخيرة قبل أن تذوب هى فى وسط الزحام.

أطلق أسامة ـ وقد أصبح وحيدًا ـ تنهيدة المحتضر الذى بعث من جديد للحياة. فى أعقاب كل لقاء مع سفيرة كان يتملكه الشعور بأنه منزوف الدم، وما هو أكثر مأساوية، أنه قد بات معنيًا بآلام البشر التافهة. استجمع قواه واجتهد فى نسيان هذا الفاصل الجنائزى. تحرر من كل العوائق التى تفرضها عليه ملاطفة النساء، فمد رقبته وسدد بصره إلى الرصيف المقابل دون تحفظ. وما هى إلا برهة من الوقت حتى تحققت أمنيته فى الواقع، كما لو كان انتظاره قد بلغ مأربه وإن كان متأخرًا. ظهر للتو رجل على عتبة المدخل المحترم وظل ساكنًا لا يتحرك من غشاء ضوء الشارع المبهر لبصره. كان عينة ثمينة من جمعية النبلاء - رجل فى نحو الخمسين من عمره، طويل القامة وضخم الجثة، يرتدى بزة زرقاء، مصبوبة عليه بعناية لتتشكل مع استدارات قوامه أشبة بالبزة النظامية

المحببة من أمثاله ـ وجميعهم من خريجى نفس مدرسة الجنوح العليا. كان ممسكًا فى يده سبحة من الكهرمان يسبح بها بعصبية كما لو كان يحاول تسكين ألم فى أسنانه أو انقباضات قرحة فى معدته. ورغم مظهره المثير لبعض النفور والذى يثير اشمئزاز حتى المعزة الشهوانية، كان ينضح فى الوقت ذاته بسعة العيش وبالسرقة على أعلى مستوى. كان وجهه المنتفخ الملامح من دهن الأكلات الفخمة لا يحمل أى مسحة من مسحات الغرور أو الثقة بالنفس التى نجدها عند الوصوليين من طينته. كانت عجرفته تبدو فى تلك اللحظة متقلصة بشدة من جراء قلق مكين مرتبط ببعض المآسى الشخصية أعزاها أسامة إلى ضياع مال أو خيانة عشيقة ما. كان وهو واقف على عتبة النادى يتحرك فى كل الاتجاهات ويتقصى ببصره المتجاوز للجماهير معترك السيارات وهو يحدوه أمل جلىّ فى أن يجذب إلى شخصه المميز انتباه سائقه.

وبعظمة السيد المعتاد على قمع الرعاع، نهض أسامة وعبر الطريق فى خطا سلطوية، معتمداً على مظهره الأنيق فى كبح الحمية الاحترابية لسائقى السيارات فى سباقهم المحموم نحو العدم. بلغ الرصيف المواجه لحظة ما كانت سيارة الرجل تتوقف أمام باب النادى. ولما كان هذا الأخير ينتظر هذا الوصول بسخط السيد الذى تخلى عنه خادمه فى قلب فتنة، فقد اندفع وسط الرتل البطىء للمتنزهين المسالمين، معرضًا نفسه لوابل من اللعنات والشتائم البذيئة. خلال هذه المسيرة القصيرة، وإن كانت شاقة، اصطدم بأسامة الذى سرعان ما أراحه، وبخفة يد الساحر، من

حافظة نقوده. ومما لا شك فيه أن الرجل لم يشعر بشىء وسط هذه الجمهرة، حيث إنه ما لبث أن دلف فى سيارته وقد تملكته حمية ونشاط من يحاول الهروب من الرجم بالحجارة.

اندفع أسامة باحثًا عن تاكسى بدافع من الفضول وليس لتوقعه لعملية غير محتملة لإلقاء القبض عليه. كان متعجلاً لفحص ناتج سرقته ومعرفة اسم ضحيته؛ فلقد بدا له ـ ودون أن يدرى السبب ـ أن هذا الاسم يحظى بشهرة كريهة. كان الرجل يبدو وكأنه قد ارتكب إثمًا جسيمًا يفسر حالة الوهن الكئيب التى رآه عليها وقت خروجه من النادى. وخلال تفكير أسامة المتهلل فيما سوف يكتشفه، كان يسعى جاهدًا لجذب انتباه أحد سائقى سيارات الأجرة وسط هذه الدوامة المرورية. كان إيقاف تاكسى من وسط هذه السيارات الدائمة الحركة أشبه بغزوة حربية ولا سيما منذ أن اعتاد هؤلاء السائقون أولاد الحرام ألا يحملوا فى سياراتهم إلا الزبائن القادمين من شبه الجزيرة العربية والذين يمكن التعرف عليهم من زيهم التقليدى ومن العدد المفرط لنساء حريمهم، فقد اشتهر عن أسياد الصحراء هؤلاء قيامهم بتوزيع النقود مثلما يقوم غيرهم بتوزيع الفول السودانى. وهذا ما يجعلهم الهدف المختار والمميز لطائفة التجار. كان أسامة يلعن هؤلاء الغزاة الذين تفوح منهم رائحة عفن البترول؛ فهم بتفاخرهم بثرائهم يستأثرون لأنفسهم بكل الخدمات المقدمة فى الفنادق وفى صالات اللعب والحانات بل وحتى الراقصات الشرقيات البائسات اللائى كن يجدن فيهم خلاصهن. حث أسامة على توخى الحذر سيل السيارات المندفع بلا انقطاع

رغم الحفر والتلال التى خلفتها فى الأرض أعمال الطرق الأبدية والتى تعطى الانطباع بمشاركتها فى سباق للحواجز. وبفضل تباطؤ خفيف فى حركة المرور سببه تعطل أتوبيس ناء به حمله من الركاب، قرر أسامة أن يعترض عن عمد مسار إحدى سيارات التاكسى التى أرغمها هذا التجمهر على التخلى مؤقتًا عن عقيدة السرعة. تصرف فظ وانتحارى لاسترعاء الإحسان أثار صدمة السائق الذى وجه إليه حديثه بصوت غاضب كما لو كان أسامة قد سب أسلافه القدامى بل وخلفه الذى لم يولد بعد:-

الله يلعن أمك! لقد كدت أن أدهسك! إذا كانت تريد الموت فأغرق نفسك فى النيل.

فأجاب أسامة بنبرة هادئة:-

ربنا يستر. على كل، أنا لا أخشى شيئًا، فأنا أحمل حجابًا. كان السائق قد حظى ببرهة من الوقت لاحظ فيها أناقة أسامة وقد انفرجت أساريره لتصوره لمشوار مغالى فى أجرته؛ فهو لم يعثر على أمير سعودى ومثل هذا الشاب لا يسعه إلا أن يسبغ الشرف على سيارته الجديدة. كان يبغض عامة الشعب الذين يشتركون جماعة فى دفع أجرته ويلوثون مقاعد سيارته بتناولهم البطيخ فيها كما لو كانت سيارته مكانًا للاحتفالات.

وإلى أين تريد الذهاب بحجابك؟

المدينة كبيرة. فلتأخذنى فى نزهة على راحتك.

إذن، تحت آمرك ياسيدى. ربنا معانا.

قفز أسامة فى التاكسى وأغلق بابه ثم جلس براحة على وسائده الوثيرة التى تفوح منها رائحة الجلد الجديد. تمكن السائق من عجلة قيادته وأطلق العنان لسيارته بسرعة الصاروخ ليعطى لزبونه النبيل دليلاً على مهارته. لم يزعج هذا الأسلوب البربرى أسامة البتة؛ فهو يندرج فى إطار معايير الهستيريا الجماعية. غمره شعور بالأمان، فأخرج من جيبه حافظة النقود التى اغتصبها منذ برهة وفتحها فى رقة فتح العشيق لجواب من محبوبته. كانت حافظة من جلد التمساح، باهظة الثمن بلا شك وتنبعث منها رائحة الفساد الفواحة. كان بداخلها خطاب. أخرجه أسامة وقرأ اسم المرسل إليه على الظرف المفتوح مسبقًا بفتاحة رسائل: فلقد كانت لا تحمل أى خدش. كانت الرسالة موجهة لعناية نادى النبلاء، لرجل بات اسمه حديث الناس منذ أسبوع لتورطه فى فضيحة مشينة. فهذا المقاول للمبانى المفرط فى الثراء يلاحقه القضاء لمسئوليته عن وفاة نحو خمسين مستأجرًا فى عمارة من عمارات الإسكان المتوسط التى أقامتها شركته والتى انهارت بعد وقت قصير من افتتاحها فى احتفال فخيم من جانب إحدى الوفود الحكومية. صعقت الصدفة أسامة؛ فأخرج الرسالة من ظرفها وشرع فى قراءتها. كانت الرسالة مكتوبة بخط اليد وتحمل شعار وزارة الأشغال العامة ويبدو أن مرسلها شريك مذعور من التوابع القضائية لهذه المجزرة. كان يخطر المرسل إليه بأسلوب لاذع ومشوب بالفكاهة اللاإرادية بتوقفه عن التعاون معه سواء فى الحاضر أو فى المستقبل، وقد أصبح

بينهم الآن خمسون جثة، فهو ـ على حد قوله ـ لا يرمى إلى إثراء الحانوتية. أما العمولة التى يدين بها له لتدخل الأخير لدى الوزارة المعنية فهو يستغنى عنها لعدم استطاعته ـ بأى حال من الأحوال ـ الإبقاء على أدنى اتصال مع رجل له حتمًا قدرة أكبر على بناء المقابر منه على تشييد المساكن، حتى وإن كانت بأسعار معتدلة. باختصار، كانت رسالة قطيعة تامة مرسلة من سارق باعدت فكرة السجن بينه وبين أى مجاملة لشريك فاقد الاعتبار. وهى مذيلة بتوقيع شقيق وزير الأشغال العامة؛ وهو شقيق غير مشرف ويتمتع بشعبية هائلة بين أعتى المضاربين المرهوبى الجانب فى العاصمة.

رغم أن أسامة كان يعتبر أن العناية الإلهية ترعاه إلا أنه كان يتوقع أى شىء إلا هذه اللقية الرائعة. أعاد لمرات قراءة الرسالة وقد انتابه شعور بالرضاء الشرس حتى حانت اللحظة التى أدرك فيها أنه يحمل بين يديه قنبلة وأنه يجهل كيف يفجرها.

(٢)

أنزل التاكسى أسامة عند مشارف حى السيدة زينب، هذا الحى الشعبى الذى شهد ميلاده وسنوات مراهقته. كان إذن، من غير اللائق، وبدافع من مجرد اللياقة ألا يتباهى بخروجه من التاكسى أمام جماهير عرفته مرتديًا الهلاهيل وحافى القدمين. وإحقاقًا للحق، فإن الشاب لم يكن يعود لهذا التجمع السكنى القذر إلا لزيارة أبيه، هذا العامل السابق الذى أصيب بكف البصر فى أعقاب ضربة هراوة تلقاها على رأسه من شرطى خلال مشاركته فى إحدى الفتن التى أعقبت ارتفاع أسعار بعض السلع الغذائية الأساسية لبقاء المواطنين على قيد الحياة. وقع ذلك قبل ثورة العسكريين. ومنذ ذلك الحين، يعيش منزويًا فى شقة بالطابق الأول لمنزل آيل للسقوط وإن كان لم يزل واقفًا بفضل دعوات المستأجرين المتكررة. وبدلاً من أن يرفع العجوز معاذ أقل شكوى ضد المسئولين عن إعاقته أو حتى يوجه لهم أدنى لعنة، اكتفى بالعيش فى هدوء وقد تأصلت لديه القناعة بأن تضحيته قد ساعدت على الأقل فى إقامة مجتمع أكثر عدلاً إزاء العاملين. كان كف بصره يحول بينه وبين إدراك ما آلت

إليه هذه الثورة. وأسامة، الذى كانت لديه عينان يبصر بهما، يمتنع عن إحاطته علمًا بما حدث؛ فهو لا يريد أن يصيب العجوز باليأس بشأن حدث طوت صفحته الذاكرة منذ أمد بعيد.

كانت الجماهير أكثر تناثرًا فيه مما هى عليه فى الطرق الرئيسية بوسط المدينة، فالحى لم يكن يدعو قط إلى التنزه. فبدلاً من واجهات المحال المغرية بمعروضاتها ومظهرها الزاهى، كنا نرى فيه دكاكين الحرفيين وبائعى الخضر ومطاعم الفول وغيرها من الأنشطة التجارية الحقيرة. كانت أعداد هائلة من الفارين من العمل يتسكعون فوق رصفان المقاهى الظليلة مثلهم مثل الأثرياء من الأعيان ليتناسوا مرور الوقت وارتفاع الأسعار. ومن العديد من أجهزة الراديو تتعالى فى دفعة واحدة آهات الحب لإحدى المطربات فتغمر بنغماتها الشهوانية فوضى الشارع الصاخبة: تلقى أسامة عند مروره تحيات العديد من التجار الذين أبدوا دهشتهم لما رأوه منه من حسن الطلعة وثراء الهندام، فأجاب عليها بتواضع لذيذ. كان الجميع فى الحى، وبخاصة فى الشارع الذى يقطنه والده، على علم بالنجاح الذى أحرزه فى مجال الأعمال ولا يفوت الفرصة لتهنئته فى كل مناسبة. بلغ المنزل وهو مغمور بعبارات المجاملة، هذا المنزل القائم على كف عفريت والذى بات جليًا أن يد التغيير لم تمسسه منذ آخر زيارة له. توقف وأخذ يتفحص ـ مثل المحتضر المتأمل لقبره ـ واجهته التى تدعمها الألواح الخشبية والتى بدت متهالكة تهالك الحوائط المفترض أنها تسندها. كان أسامة جريئًا

ولكن ليس إلى حد الموت عن طيش وهو يلاحقه من بعد موته خزى استخراج جثته من تحت الأنقاض مع العديد من الجثث الوضيعة. لو فعل ذلك لأهان ذكاءه. وكثيرًا ما توسل لوالده حتى ينتقل للإقامة فى منزل أشد صلادة ولكن العجوز معاذ كان يأبى ذلك بعناد متذرعًا بأنه سوف يعيش فى أى مكان آخر فى نفس الليل الحالك. كان يتخذ من عدم إمكانيته رؤية الإشارات المنذرة بكارثة وشيكة مبررًا لتصميمه على ألا يضع هذا الأمر فى حسبانه. أدرك أسامة أن فقدان البصر أحيانًا ما يصبح ميزة. ابتهل إلى الله ليحافظ على التوازن الهش لهذا المنزل وقت زيارته له، ثم عبر رواق المنزل وصعد درجه فى خطوات حذرة وقد كتم أنفاسه خشية أن تؤدى إلى تصدع عجول. ولحسن الحظ، لم يكن عليه الصعود إلا طابقًا واحدًا. وسرعان ما وصل إلى باب مسكن والده الذى أبدًا ما أغلقه بالمفتاح. فتحه أسامة بمنتهى الحيطة وولج فى حجرة مؤثثة لتكون غرفة معيشة موظف محترم على المعاش.

كان الشيخ معاذ جالسًا أمام النافذة المفتوحة، فى مقعد وثير من المخمل الأحمر والخشب المذهب وقد اشرأب بوجهه نحو ضوضاء الشارع التى لا تهدأ والتى كانت تبدو وكأنها تمثل بالنسبة له حلقة الاتصال الوحيدة التى لم تزل قائمة بينه وبين البشر. جلسته المفعمة بالنبل ومقعده الفخم جعلاه أقرب إلى الملك المخلوع الذى لم يحمل معه فى منفاه إلا عرشه كرمز لسلطته الضائعة. أبدًا، لم يغير اقتحام أسامة للغرفة من تعبيره بالتلذذ من الاستماع إلى

صخب المرور النشاز والنداءات المصورة للباعة الجائلين. ودونما أن يستدير، سأل قائلاً:-

أهذا أنتِ يازكية؟

إنه أنا يا أبى. ومن عساه يكون غيرى؟!

أشاح الضرير بوجهه نحو ولده ونظر إليه محدقًا كمن يبحث عن طريق وسط الظلمات كما لو كان يسعى إلى أن يتبين فيه علامات السعادة أو الحزن. كانت عيناه قد احتفظتا بمظهرهما الطبيعى. فضربة الهراوة الشهيرة لم تصب سوى العصب البصرى فقط. بيد أن الشيخ معاذ كان قد اكتسب على مدى هذه السنوات قناعًا من الجدية والحكمة البالغة التى نلحظها عند العميان الذين يكون حجاج عيونهم مفرغًا ويثيرون بذلك الافتتان القلق لغالبية المبصرين. وكثيرًا ما كان أسامة يسأل نفسه عما إذا كان العمى يجعل الإنسان أكثر عمقًا أم أنها مجرد خرافة سخيفة؟! لم يتمكن قط من تحليل هذه الظاهرة.

أهلاً بك يابنى. كنت منهمكًا فى التفكير فى مآثر الثورة. لدىّ الانطباع بأن هناك مزيدًا من الحركة والنشاط فى الحى. أسمع الناس يضحكون ويتنادون فكهين كما لو كانت الدنيا قد أصبحت شيئًا رائعًا بالنسبة لهم. هذا عزاء لى أن أكتشف يوميًا أن السعادة لم تعد حكرًا على الأقوياء.

جلس أسامة على كرسى بالقرب من والده وألقى بنظرة كاشفة عبر النافذة. كان الضرير على حق. فقط ما كان يبدو له فورة

ناتجة عن مكاسب الثورة، لم يكن فى الحقيقة إلا نتيجة لزيادة لا تطاق فى عدد السكان. ومما لاشك فيه أنه قد نسى أن إخوانه فى المواطنة قد أبقوا دائمًا على روح الدعابة بغض النظر عن أية اعتبارات أيديولوجية حتى أننا قد نظن أن ضربة الهراوة لم تصبه بالعمى فحسب وإنما قد أعتمت أيضًا ذاكرته. وكما جرت العادة تحاشى أسامة الحديث عن مآثر ثورة لا وجود لها إلا فى عقل والده. ورأى من الأصوب تحويل دفة المناقشة إلى موضوع أكثر جاذبية؛ فاستفسر عن غياب زكية البغيضة، هذه الخادمة التى تتصرف كما يحلو لها فى ساعات العمل.

ألم تصل زكية بعد؟

لن تتأخر. إنها امرأة من أصل طيب. وهى تهتم بى بكثير من الإنسانية.

كان على أسامة الاعتراف بأن الحجرة نظيفة والأثاث جيد التلميع والرداء الذى يرتديه أبوه مغسول ومكوى بعناية. ومع هذا، كان يرتاب فى أن لهذه المرأة مآرب فى الزواج من هذا المعاق. ولما كان يعطيها أموالاً طائلة للعناية بالعجوز، فلا شك أنها كانت تعتبره مصرفيًا أو من مزورى النقود. علاوة على ذلك، فلقد كانت تحمل وجهًا متجهمًا لامرأة طلقها على التوالى كل من تزوجت بهم بعد خداعها إياهم بسحرها. كان يبغض فكرة أن تصبح هى زوجة أبيه إلى الحد الذى دفعه إلى عدم التردد من تحذير أبيه ـ مستخدمًا

فى ذلك حكمه على جمالها ـ من حيل هذه الأنثى التى كانت جذلة من تصورها لفكرة الزواج مرة أخرى من هذا المعاق.

مأخذى الوحيد عليها هو أنها شديدة القبح.

ـ قبحها لا يعنينى فى شىء. كما لا أبالى لو أنها كانت جميلة. أنسيت يا ابنى أننى أعمى؟

أغرقت هذه التذكرة بالواقع أسامة فى حلم يقظة مرير. كان يشرد بذهنه لحظات بشأن عجز والده. ولكن أن يعتقد أن هذا الأخير بإمكانه الاهتمام بملامح وجه الخادمة، فاتنة كانت أم منفرة، فهذا مثير للقلق. وفطن إلى التكفير عن خطئه الفاحش بالوفاء سريعًا وبلا تأخير بغرض زيارته له.

اغفر لى يا أبى لعدم مجيئى قبل ذلك فأنا غارق فى العمل. فحتى اليوم، اضطررت للتحدث لساعات طويلة مع متعهد بناء، رجل ذى أهمية قومية وعنيد عند التفاوض. كان الأمر يتعلق بطلبية أسمنت ضخمة. وانتهيت إلى إبرام الصفقة. علاوة على ذلك فقد أحضرت لك بعض المال.

أخرج أسامة حافظة النقود المصنوعة من جلد التمساح التى كان قد نشلها من متعهد البناء وسحب منها بعض أوراق النقد من فئة العشرة جنيهات ووضعها، ببعض الحرج، فى حجر والده، كما لو كان بوسع هذا الأخير التكهن بمصدرها. كان أحيانًا ما ينتابه الشعور بأن الضرير لم يكن مخدوعًا بنجاحه الاجتماعى. ظل لعدة لحظات

يرصد وجه أبيه ظنًا منه أنه يلمح ابتسامة متواطئة، ترتسم عليه. بيد أن هذا الوجه العابس، الذى شرفته التعاسة، لم يبين أى إشارة تَسَتُّر. وبعد أن اطمأن قلبه من هذه الزاوية وأدى واجبه البنوى، لم يبق له إلا إقناع العجوز بمغادرة منزل الموت الحتمى هذا قبل أن يغدو الوقت متأخرًا. كان على الأقل لموضوع الحوار هذا، الذى يعاود تناوله فى كل زيارة، مزية تهدئة روعه بإثارته لفكرة الانتقال قريبًا لمسكن آخر؛ فلقد أصبحت معاناته تتزايد من مخاطرته بالدخول فى فخ الصقالات والأحجار العفنة التى باتت على أتم استعداد لالتهامه عند وقوع أول هزة أرضية.

علىّ التحدث معك يا أبى.

أسمعك يا بنى. أهناك ما يسئمك؟

هموم ثقيلة. أنا قلق على أمنك. لقد باتت مغادرتك لهذا المنزل أمرًا ملحًا؛ فهو يوشك على الانهيار فى كل لحظة من مجرد مرور عربة يد مثقلة بحمولتها أو عند الصراخ المتكرر لامرأة ثرثارة تصب اللعنات على عيالها. أتوسل إليك أن تثق فىّ.

رفع العجوز معاذ يده كما لو كان يسند المنزل ويحول دون وقوع كارثة وشيكة.

نحن بين يدى الله يا بنى. ما بوسعنا القيام بشىء ضد إرادته. فإذا كان مكتوبًا على هذا المنزل الانهيار فى يوم ما فسوف يتم ذلك بمقتضى مشيئته. أما عن نفسى، فقد قلت لك إننى لا أريد مغادرة هذا الحى. فهنا، سوف أعيش حتى الممات. لا أريد الموت فى الخارج.

ولكنى لا أحدثك عن السفر للخارج؛ فأنا أقترح عليك مجرد أن أنتقل بك للإقامة فى منزل من شأنه مقاومة الانهيار لعدة سنوات أخرى. لم يزل هناك مثل هذه المنازل وحتى فى هذا الحى. سوف أهتم بعملية الانتقال بأكملها. وهكذا، سوف لا أقلق على مصيرك بينما أعقد صفقات على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للبلد. فهل تريد بعنادك هذا أن تضر بمصلحة البلاد؟

إذا كنت ألحق الأذى بالبلد، فليغفر لى ذلك. ولكن لا ينبغى أن يساورك القلق بشأنى. فلقد بلغت آخر مراحل حياتى ولا تهم الطريقة التى سأموت بها. وفى هذا الشأن، أريد أن تسدينى خدمة. أود لو اشتريت لى بضعة مقاعد، نحو اثنى عشر كرسيًا. كن طيبًا بعض الشىء وفكر فى هذا الأمر. المسألة ليست ملحة ولكن يفضل الإعداد مسبقًا. أنا أعتمد عليك فأنت ابن بار.

ظل أسامة مذهولاً للحظات وهو يتساءل إذا كان أبوه يهذى أو يعتزم إقامة حفلة لإحياء ذكرى الثورة. لم يكن يجرؤ على سؤاله خشية أن يسمعه يُسر إليه بمثل هذا المشروع. وبالتأكيد، لا يعتقد أن المنزل سيصمد طويلاً أمام هجوم جحافل المدعوين. ولكن، أى مدعوين؛ فأبوه لا يقيم أية علاقات إلا مع الخادمة زكية. هل يمكن الاعتقاد أنها بلغت مقصدها وأن العجوز يفكر فى تأثيث المنزل بالرياش الفاخر تحسبًا لزواجه؟ أثار هذا الافتراض إزعاج أسامة إلى الدرجة التى دفعته إلى الصراخ كما لو كان فى كابوس:

مقاعد؟ لماذا تحتاج لقرابة دستة من المقاعد؟

أفكر فيمن سيحضرون دفنى. لا ينبغى أن يظلوا واقفين. أعتقد أن تصرفًا كذلك تعدمه اللياقة.

أية ناس يا أبى! هل تعرف أناسًا كثيرين؟

سوف يكون هناك رفقاء المصنع القدامى. أنا على يقين أنهم لم ينسوا أننى قد تلقيت ضربة الهراوة التى أفقدتنى بصرى أثناء كفاحنا المشترك. ولربما أيضًا أوفدت الحكومة الثورية واحدًا من وزرائها. وهو، سوف تخصص له هذا المقعد الذى أهديتنى إياه حيث سيكون شاغرًا عند وفاتى. وعليه، بإمكانه الجلوس دون الشعور بالغربة. أترى؟ لقد أعددت كل شىء حتى يتم دفنى فى لياقة وكرامة.

أوشك أسامة أن ينفجر فى الضحك وهو يتخيل أحد أعضاء الحكومة متخذًا مجلسه فى هذا المقعد المكسوّ بالقطيفة الحمراء والمصنوع من الخشب المذهب مثلما الحال فى مكتبه الوزارى، إلا أن شعورًا بالتعاطف قد انتابه أمام عدم إدراك الضرير، فكبح زمام بهجته. هكذا، وبعد مرور هذه السنوات الطوال. كان معاذ لا يزال يعتقد أن رفاقه القدامى فى المصنع يتذكرون شجاعته أثناء التمرد وأن الحكومة تعتبره شهيدًا لعملية القمع الملكية الضخمة. مثل هذا الإيمان فى مسلك البشر، كان مستحقًا لاحترام واجب لمخلوق مصاب بالعاهة.

فأجاب قائلاً: -

بالطبع. من المؤكد أن الحكومة مدينة لك بميدالية، على الأقل جزاءً لموقفك المجيد فى ظل الملكية. سوف أتحدث فى هذا الشأن

مع أحد أصدقائى المتبوئين لمراكز كبيرة فى الحكومة. فهذا التكريم لن يكلفهم شيئًا وسوف يغسل عنهم عار تجاهلهم لك طوال كل هذه الفترة.

كان أسامة قد عقد العزم على أن يشترى له بنفسه هذه الميدالية، ولكن الضرير أومأ برأسه رافضًا وتشنج وجهه الهادئ الملامح عادة كما لو كان التكريم ينفره نفورًا شديدًا.

لا أريد ميدالية. إننى أشكر الله لأنه وهبنى ولدًا مثلك. إذا كان الحى يكرمنى فذلك بسبب نجاحك فى مجال الأعمال. وإذا كان يتعين على الحكومة أن تمنح ميدالية لشخص ما، فينبغى أن تكون لك أنت يا بنى. سوف أموت سعيدًا لمعرفتى أن السلطة الثورية تهتم بمواهبك.

أن تقوم الحكومة بتقليده وسامًا جزاءً له على مواهبه فكرة راقية اعتبرها أسامة بمثابة ذروة الهذيان. بالطبع فإن كل حكومات العالم لا تضن بتوزيع الأوسمة تكريمًا للقيم الكبرى التى تساند سلطتها، ولكنه من المستبعد تمامًا أن تفكر فى منح واحدة من هذه الحلى التافهة لسارق حقير يعيش على هامش عصره. على كل، فإن استبعاد أسامة من الحصول على محاباة الحكومة لم يكن يمنعه من أن يسبغ على نفسه التهانى فى كل مرة يتمكن فيها بفضل مواهبه فى النشل من تقليص الأرباح الاحتيالية لأحد أبناء آوى من المستبدين سواء أكان ضمن المكرمين أم لا.

ظل صامتًا لبرهة وقلبه يرقص فرحًا وهو لم يزل تحت تأثير هذا الحديث الجذاب والمضحك الذى دار بينه وبين أبيه. وقد أعزى هذا الأخير صمته هذا إلى الأسى الذى كان يشعر به ابنه أمام رفضه الانتقال من هذا المنزل المتهالك فعلاً بفعل الزمان وإن كان بقاؤه مضمونًا بفضل إيمان مستأجريه. وقال بلهجة رجل حكيم متوكل على الذات الإلهية:

يا بنى. هذا المنزل تم بناؤه منذ ما يزيد على المائة عام. لماذا إذن سينهار الآن، إن غالبية منازل الحى أقدم بكثير. علاوة على ذلك، هناك العديد من المستأجرين بهذا المنزل الذين ليس لديهم مكان آخر يؤيهم. هل أكون الوحيد الذى ينجو بجلده من هذه الكارثة؟ فإذا كانت هذه مشيئة السماء، فسوف أشارك جيرانى مصيرهم.

كان أسامة يعرف أباه رحيمًا تجاه الآخرين، ولكن كان عزمه التضحية بنفسه مع مجموع ساكنى العقار يتجاوز مجرد الشفقة؛ فهو يكشف النقاب عن غرور غامض وعن تحدٍ سافر للظلم. أصاب الاضطراب الشاب كما لو كانت قد ظهرت له امرأة رائعة الجمال وعارية فى مدينة مهجورة. لم يكن معاذ قد فقد إذن كل شىء، فقد ظل محتفظًا فى ليله الدامس بترف الفقير الأوحد؛ وهو تلك الكرامة التى دفعته فى الماضى إلى مكافحة الاضطهاد. وإن كان هذا الاعتزاز بالنفس، المدفون كالكنز خلف ملامح وجه وديعة لعجوز على شفا الموت، لم يكن ليفيده حاليًا فى شىء إلا فى تحدى كارثة طبيعة كامنة منذ زمن سحيق فى جدران منزل عتيق. الأمر

فى مجمله يفطر القلب، لكن أسامة لم يكن يشعر بأدنى انجذاب نحو هذا الأسلوب الجماعى والديموقراطى للانتحار. وما كادت زيارته تبلغ الزمن الضرورى لها لتكون لائقة ويَهِمّ هو بالرحيل حتى سمع دَوِىّ طرقات مخيفة على الباب. وجاء رنينها فى أذن أسامة كما لو كانت طرقعات كئيبة تنذر بانهيار المنزل. قفز من فوق مقعده وأراد لو اندفع حاملاً أباه إلى الشارع إلا أن دخول زكية قد استوقفه فى انطلاقه. وهى التى لم تخش كسر الباب للإعلان عن مجيئها. امرأة فى الأربعين من عمرها، ضخمة الجثة، قسمات وجهها من القبح المثير للقلق الذى يذكّر بوجوه الملعونين المُلقى بهم فى نار جهنم. كانت فظاظة تصرفاتها، وعنفها فى تعاملها مع الأشياء التى تعتزم الوقوف فى طريقها تجعل منها بمثابة المعاونة المثلى للخطر المحلق فوق البيت. حركة واحدة شديدة العنف من تلك المرأة، كفيلة بزعزعة قواعد أحد المعاقل ولا طائل من القول أن وجودها فى الحجرة لم يكن ينبئ بشىء طيب لصالح أمن أسامة وأنه عزز من رغبته فجأة فى ترك هذا المكان الذى بات كارثيًا. ذهبت زكية أولاً لتضع كيس مأكولات فى ركن المطبخ، ثم استدارت نحو أسامة وهى تصرخ إعجابًا بصوت أجش ذكورى النبرات: -

ها هو ذا أجمل وأشهر الأمراء. حفظك الله يا مولاى.

هرعت نحو أسامة كما لو كانت غولاً متعطشًا للدماء وقبضت على يده لتقبيلها. إلا أن الرجل الشاب سحب يده سريعًا متراجعًا وقد أصابه الفزع من هذا التلامس المشين. وبادر قائلاً: -

حسنًا. ما دمت هنا. سوف أستطيع المغادرة. لدىّ الكثير للقيام به اليوم. اعتنى بأبى وإلا قطعت رقبتك.

ما أن خرج أسامة إلى الشارع حتى أصابته أعراض الابتهاج التى يشعر بها المحكوم عليه بالإعدام حين العفو عنه فى اللحظة الأخيرة. أسرع الخطا، رغبة منه فى الابتعاد بأقصى قدر ممكن عن المنزل المشئوم. وهو لشعوره بأنه قد تحرر أخيرًا من خوف التعرض لنفس مصير المستأجرين الخمسين لهذا المبنى الذى شيده المقاول السافل، استعاد من جديد روحه المرحة وسخريته بمجرد ملاقاته للجماهير التى تعيش أيامها فى هذا الحى الشعبى المفتوح لكل أنواع المعجزات. ولما كانت أخلاقه تحظر عليه ممارسة مهنته ضد البؤساء، فقد أخذ يفكر بصفة خاصة فى الخطاب الذى لو أفشى ما فيه، لقضى بصورة مروعة على سمعة المرسل إليه المتضررة بالفعل بشكل بالغ وأيضًا على السمعة المقدامة لشريكه - شقيق الوزير - والمجهول حاليًا من العامة. كان منبهرًا لحوزته مثل هذا الدليل ضد شقيق أحد الأعضاء البارزين فى الحكومة وإن ظل يائسًا رغم ذلك لعدم قدرته على استخدامه. وهو، وقد أصبح بفضل مرسوم إلهى مؤتمنًا على هذه الفضيحة الوزارية المستوى، يشعر بأنه ملزم بنشرها فى كل أنحاء البلاد بل وفيما يتجاوز حدودها بغرض إثارة متعة شعوب أخرى أقل معرفة بإجرام قادتها. ولكن، كيف يمكن إعطاء إشارة البدء لمثل هذا المشروع الطموح؟ فعرض الرسالة على إحدى الصحف حلٌ سهل وينطوى على خطر مؤكد ضد شخصه وقد يكون من السذاجة لو تقدم بهذه القنبلة

لأحد رؤساء التحرير الجبناء بطبعهم الذين يخشون من فقدان وظيفتهم. ولما كانت كل الصحف يهيمن عليها المال، فمن المتوقع أن ينتهى الأمر بوأد القضية بأكملها فى مهدها علاوة على إدانته من قِبل بعض القضاة المطيعين المشبوهين المقربين لكبار اللصوص. كان شك أسامة الفطرى فى كل فئات المجتمع يرغمه على البحث عن صيغة غير مجربة تسمح له بالبقاء فى حالة إغفال تام. وبعد أن أمعن التفكير هباءً فى كافة السبل، أدرك أنه لن يبلغ وحده أبدًا أى شىء وأنه يحتاج إلى اقتسام هذا السر مع آخر، بعد أن أصبح، وعلى مر الساعات، ثقيلاً للغاية ليتحمله وحده. ليس مع أى آخر، ولكن مع عقل متحرر من كل العوارض. بلا زوجة أو أطفال أو حتى أى وظيفة يحرص عليها. لم يكن يعرف شخصًا مستوفيًا لهذا الوصف الحصرى عدا لصوص البلد، رعاع قليلى الاهتمام بالسياسة، يفضلون ـ بصفة مبدئية ـ ظلام السرية عن الشمس الموبوءة للشهرة. حدا بأسامة أمل غبى جعله يتفرس وجوه الناس من حوله علّه، فى هذا التجمهر لمخلوقات غير مبالية حتمًا بمشكلته، يخرج من مكمنه هذا الجِنِىّ المجهول الذى سيعرف كيف يسدى إليه النصيحة. ومن حوله وفى كل مكان لم يكن يرى سوى وجوهٍ لمرؤوسين فى دهماء ذلتها احتياجات أكثر إلحاحًا ومادية لا تؤثر فضيحة سياسية مالية تزيد أو تنقص من عدد الفضائح على تصورها لهذا العالم. وما لبث أن أضجرته محاولته السخيفة حتى أنه قد نشط سعيه عازمًا على الخروج من هذا الحى الحقير الذى لم يكن ليستطيع أن يعزيه فى وحدته المريرة كرسول للخزى.

اندَسّ آسامة على عَجل، وهو مكروب لعجزه عن تسلية رفقائه بفضيحة مبهجة إلى هذا الحد ومخاطراً ببزته الجميلة، وسط الجماهير الرثة الثياب عندما تعرف على (نمر) معلمه فى المهنة، الذى لا يضاهيه أحد، وقد اتخذ مقعده فى شرفة أحد المقاهى. كان الرجل حليق الرأس وذا لحية كثيفة تخفى نصف وجهه. إلا أن هذا التغيير الوهمى الهادف إلى خداع شرطة قد ألفت ملامحه حتى السأم لم يكن بوسعه أن يخدع أسامة الذى كان لم يزل يحتفظ فى مخيلته بصورة معلمه القديم التى ظلت غير قابلة للمحو منذ لقائهما الأول. لم يكن قد رأى نمراً منذ عدة شهور، فالمعلم، رغم حذقه الذى يضرب به المثل، وبحق بسبب هذه السمعة، كان يقيم كثيراً فى السجن. اقترب أسامة من الرجل، بفرحة الطفل الذى يعثر على لعبة أضاعها منذ زمن، وقد استغرق، فى تحفظ، فى ارتشاف كوب من الشاى كما لو كان مفلساً يمنح لنفسه لحظات لذة عابرة نادراً ما تتجدد.

سلام عليكم يا نمر! لقد لبى الله دعواتى. كنت أبحث عنك يا معلمى القدير.

رفع نمر رأسه وتأمل وجه أسامة بنظرة المتعض لسماعه أقوالاً مغشوشة.

يا ابن العاهرة! كيف عساك أن تبحث عنى طالما كنت تعلم أننى فى السجن. ألا تختشى من الكذب على معلمك القديم؟ وقبل كل شىء ماذا تفعل فى هذا الحى العفن؟

شعر أسامة، من رؤيته لمعلمه القديم متخفيًا تحت قناع أحد أنصار الجماعات الدينية، ببعض المسئولية إزاء هذه الهداية المؤسفة. وبدا وَرَع نمر المفاجئ وكأنه هذيان عقلى صريح أعقب تراخيًا مهنيًا. ولذلك عمد إلى الكذب والبهتان، اعتقادًا منه أن مثل هذا القول من شأنه أن يبعث من جديد ضمير رجل أودت به ظروف سيئة إلى الانزلاق فى هوة التصوف.

بشرفى، كنت أبحث عنك. فلقد علمت من الصحف التى أقرؤها كل صباح بإطلاق سراحك ـ وإن كانت لم تذكر محل إقامتك الحالى ـ إلا أننى أعرف كيف أعثر عليك فى هذه النواحى.

ورغم جسامة كذب أسامة، فقد كان أبعد من أن يخشى أن يكذبه الرجل؛ فالمعلم لم يكن من المتحمسين للصحف لجهله بالقراءة والكتابة. بدا نمر وكأنه يوازن صدق هذا التفسير غير القابل للتيقن منه. وحدث أن رجح كفة التباهى على كفة الشك. كان يكبر أسامة بعدة سنوات ويحظى بسلطة لا نزاع فيها من بين أفراد أهل الحرفة. ويمكننا أن نرجع إليه تأهيل جيل كامل من النشالين الذين ينتشرون فى المدينة وهم يسبحون باسمه. كان ينظر باحتقار إلى الأناقة المخادعة لتلميذه المفضل وقد ارتدى هو مقترًا ثيابًا رثة أقرب إلى الاحتشام.

فطويلاً ما صدمته هذه الأناقة التى لا تتفق مع أخلاقياته كبروليتارى متحرر ورأى فيها تعبيرًا عن الخديعة. ومنذ أن بدأ

الشاب ارتياد الأحياء الراقية لاصطياد ضحاياه من بين كبار لصوص العاصمة، كان قد ابتعد عن دائرة نشاطه وكان يأسف - ببعض الحقد - على ضياع عنصر واعد. كان يبدو أن ذكاء أسامة فى هذه المهنة التى علمه إياها قد تجاوز تعليمه، وهو أمر لا يغتفر لمعلم كان يعتقد بعدم وجود من يفوقه فى تخصصه.

يجب أن أعترف أنك تتخذ مظهر الخائن البهى المنظر. ولكنى لا أستطيع أن أهنئك. فبأساليبك المدنسة للحرمات قمت بخيانتى أنا معلمك ومعى كل أعضاء الحرفة.

فيم خنتك؟ أنا أسرق الأغنياء؛ أى اللصوص، هل فى هذا خيانة؟

لقد علمتك السرقة والآن تذهب لاستغلال موهبتك فى الأحياء الراقية متنكرًا لوسطك ومحتقرًا لمعلمك. نحن لم نعد من نفس الحزب. لم يبق لك إلا أن تشترى عربة سبور لانتقالاتك. ربما حينذاك قد تحظى بإعجابى. أما الآن فإنك تعطينى الانطباع بأنك طاووس صغير يتعاجب بريشه.

منذ زمن، ومن قبل أن تُسجن، شرحت لك سبب هذا التنكر فى الزى. فأنا حين أقوم بعملياتى فى بعض الأوساط وأنا على هذه الهيئة، لا يستطيع أىٌّ من الناس الخلط بينى وبين لص وبهذا استبعدت كل المخاطر.

وهذا ما ألومه عليك. لا شىء أكثر انعدامًا للأخلاق من السرقة بدون مخاطر؛ فالخطر هو ما يفرق بيننا وبين المصرفيين وأقرانهم

الذين يمارسون السرقة القانونية تحت رعاية الحكومة. أنا لم أرسخ فنى فى ذهنك لتصبح لص سينما يتمثل همه الأكبر فى عدم إثارة نفور جمهوره.

لم يتندم أسامة البتة من أثر اتهامات معلمه السابق له. كان يبتسم لمعرفته أن هذا القدح لا يعدو أن يكون أسلوبًا ملتويًا للاحتفاء بتلاقيهما من جديد. كان نمر شديد العجرفة إلى الحد الذى يجعله لا يفوت فرصة التعبير عن غضبه ضد أدنى انتهاك للقواعد المقدسة لفنه. لم ينسَ أسامة أبدًا حالة الانحطاط الجسدى والذهنى التى لقى عليها من كان عليه أن يصبح معلمه وسنده طوال مدة تعليمه. فقبل هذا التاريخ بعدة أعوام وبدافع من رغبته فى مساعدة أبيه المعاق، تخلى عن دراسته، اعتقادًا منه بأنه بتسلحه بالمعرفة الكبرى ـ القراءة والكتابة ـ يستطيع الحصول على عمل ذى أجر كبير. بيد أنه ما لبث أن خفف من غلوائه حيث لم يرغب أحد فى علمه. وعمل دواليك ساعيًا وماسح أحذية وبائع فول سودانى وخادمًا، فعرف عذاب الكادحين فى سعيهم بحثًا عن قوت يومهم. أعقبت ذلك فترة بطالة طويلة كان التسول هو وظيفته الوحيدة فيها ومورد رزقه الأوحد. محنة مؤلمة. فعندما يكون الجسم صحيحًا دون أية علة مرئية، يظهر التسول ليكون صناعة غير مثمرة. وكان أسامة يجد نفسه فى وضع مجحف مقارنة بكل العرجان ـ العميان أو الكتع ـ الذين كانوا يمارسون متفاخرين هذه المهنة الملكية المعفاة من الضرائب. وفى لحظة من لحظات الهذيان، خطر بباله أن يبتر ساعده أو ساقه لإثارة إعجاب هؤلاء المانحين

الورعين الذين تجتذبهم الجروح المفتوحة والأجساد غير المكتملة. وأخيرًا، جلس، وقد تمكن منه الجوع وتأهب للانتحار، كان من السهل للغاية الموت بإلقاء نفسك تحت عجلات كل هذه السيارات المتعجلة لدهسك - على حافة رصيف وقد أخذ يجترع انتكاسه وينتظر مرور أتوبيس أو شاحنة محملة بالبطيخ: الضمان لموت محقق. وعندئذ، إذا بشخص متهلل الوجه، مظهره مسترخٍ كمظهر سيد من طبقة اللصوصية. وقد رآه فى هذا الوضع الحرج - فالمرور الكثيف للسيارات يجعل حافة الرصيف على درجة من الخطورة لا تقل عن خطورة حافة بركان فى أوج ثورته - يلقى إليه بقطعة نقود من ذات العشرين قرشًا. لم يكن هذا الشخص غير نمر الذى استولى لتوه على حافظة نقود تاجر دقيق وكعادته يقوم بتوزيع بعض من ثروته غير المشروعة على الفقراء ليعطى بذلك لمهنته هذه الصبغة الاجتماعية التى تعزى عادة للّصوص الأسطوريين. ذهل لرؤية أسامة يلتقط قطعة النقود ليعيدها إليه وهو يقول له فى لهجة شخص جلى البصيرة لحظة احتضاره بأنه لم يعد فى حاجة للمال. اشتم نمر فى هذا المعدم المحتقر للحسنة حالة مأساوية شديدة التعقيد، فجلس إلى جانب أسامة باهتمام عالم الآثار حين اكتشافه لمومياء غير أصلية فى متحف. فى بادئ الأمر، لم يجب الشاب على أسئلته، فقد كانت فكرة الانتحار لا تزال مستحوذة على تفكيره، وهذا الشخص المجهول الذى كان يراه جديرًا بقدر قليل من الاحترام وعلاوة على ذلك غير قادر على أن يمد له يد العون، يثير حنقه لعدم تحفظه. إلا أن اهتمام نمر انتهى به الأمر إلى تخفيف

ألمه وحينذاك نشأت علاقة أخوية بينه وبين الرجل الذى لم يلبث أن علمه كيف يتحرر من قَدَره. روى أسامة، فى مونولوج طويل يقطعه لهاثه، محنته الطويلة التى اجتازها كمتقدم لوظيفة، وتجربته العقيمة كمتسول يعوقه انعدام إعاقته الجسدية. وأضاف قائلاً إنه قد اتخذ بالفعل قراره بالانتحار وأنه ينتظر جالسًا على الرصيف مرور سيارة ضخمة للتأكد من موت سريع. انبهر نمر لما وجده منه من أمانة فى التعبير عن مأساته فساعده على النهوض واصطحبه أولاً لتناول طبق من الفول فى مطعم مجاور. وبينما كان أسامة يتلذذ شبعًا بهذه الأكلة المنشطة، قص عليه حاميه حياته الرائعة التى عاشها فيما مضى، حياة الحرية هذه القائمة على عمومية السرقة. كان نشالاً منذ نعومة أظفاره وأصبح محترفًا على أعلى مستوى، قادرًا على تدريس فنه لأكثر أقرانه فى المواطنة تخلفًا. ويحدث أحيانًا أن يلقى البوليس القبض عليه، إلا أن السجن لم يكن يضايقه كثيرًا، فلقد كان على العكس من ذلك، يوازى بالنسبة له استجمامًا علاجيًا كان يخرج منه جسورًا ومفعمًا بالحماس وعلى أتم استعداد لاستئناف نشاطه، شأنه شأن الموظف العادى فى أعقاب إجازة مرضية. وبعد تباهيه بمهنته المجيدة، أعلن لأسامة عن استعداده لأن ينقل خبرته وأن يغرس، فى ولد مثله يعرف القراءة والكتابة، مهارات تمكنه من أداء أشياء نادرة وغير مألوفة لدى هذه الطائفة التى تجمع عناصر جاهلة وبلا عقيدة سياسية. فتن نمر بشكل متزايد تحت تأثير هذا المنتسب الجديد والاستثنائى للطائفة، فأسهب فى عرض نظريته الخاصة بالسرقة على الشاب

بوصفها تمثل استردادًا عادلاً لفكة قليلة يأخذها الفقراء من كبار لصوص هذا العالم الذين يفتنون بلا عقاب عند أعلى درجات السلم الاجتماعى. ذهل أسامة فى بادئ الأمر مما كان قد سمعه للتو ثم ما لبث أن أدرك (فطبق الفول قد أحدث فى عقله نفس حدة التمييز الناتجة عن كرية حشيش عالى الجودة) بساطة هذا القول الذى يعتبر كافة القيم المقبولة من جانب عشرات العبيد خادعة ومزيفة ومستحقة الإلقاء فى العدم. شعر بالامتنان وراحة البال لمعرفته بهذه الأخلاقيات المتوقدة مما جعله يوافق على اقتراح منجيه دون أن يراوده أدنى شك بأنه سيأتى اليوم الذى سيكون فيه أمهر من معلمه المقبل فى مهنة قديمة بقدم الإنسانية ذاتها. وعلى مدى فصل شتاء كامل، علّمه نمر كيفية اكتساب خفة اليد هذه وهى المهارة التى تعد أساس سمعة عازف البيانو الماهر والنشال الذى لا يمكن الارتياب فيه. ثم أطلقه فى الطبيعة سعيدًا بأنه قد أنجز عملاً عظيمًا يأمل فى أن يحاسب عليه فى يوم الحساب. لم يكن أسامة غير أهل بهذا التعليم المكثف وحدث أن صادف كثيرًا أستاذه خلال تلك السنوات التى عملا فيها سويًا فى نفس المناطق بالعاصمة. كان نمر مغتبطًا من جانبه لتنبئه بامتلاك تلميذه لتلك الخصال الرئيسية لهذه المهنة الخفية التى تتطلب ـ علاوة على الخفة ـ ضميرًا ثوريًا. ولكن، عندما خطر ببال أسامة ارتداء ملابس الفارس الأسطورى لارتياد الدوائر المخصصة لكبار اللصوص ندرت شيئًا فشيئًا فرص اللقاء فيما بينهما. فنمر الذى عادة ما كان يلتقط حقه من جيوب معاصريه المتواضعة الامتلاء لم

يكن من تدخلات بوليس متحفظ ومعدوم الطرافة. وحيث إنه قد أصبح ضيفًا شبه دائم لإدارة السجون، فكثيرًا ما كان يبقى دون رؤية تلميذه العبقرى لعدة شهور.

كان نمر يحتفظ دائمًا بهذا المظهر العابس لرجل أهينت معتقداته وينوى الإبقاء طويلاً على هذه الهيئة العدائية، إلا أنه ما هى إلا لحظات حتى أسأمته ابتسامة أسامة الماكرة من تقطيبه المصطنع. وبداهة فإن الشاب لم يكن يعبأ بهذه التحذيرات، بل والأسوأ، أنه كان يهزأ منها وعندها قال له:

إننى أسامحك. إذ أننى أعتبرك بمثابة ابنى. ابن عاق ولكن ابنى رغمًا عن ذلك. آمل ألا تكون قد أهملت تعاليمى منذ ما بدأت تعمل مع الطبقة الراقية.

لقد تصرفت دائمًا مثلما علمتنى. عدا أن أفراد تلك الطبقة المتميزة يتميزون أيضًا بسعة حافظات نقودهم. أسرقهم ويحترموننى، حتى رجال الشرطة الذين يتصادف لى أن ألتقى بهم يحيوننى باحترام.

لا أشك فى ذلك. فهؤلاء الناس على درجة عالية من الغباء لا تمكنهم من قراءة مهنتك على وجهك.

وكيف عساهم أن يتمكنوا من ذلك؟ فأنا أتزين بكل زينات الرفاهية. يعتقدون أننى ثرى. ومن المفهوم فى هذا الوسط أن الفقراء فقط هم اللصوص. إنها خرافة قائمة منذ القدم وتتفق تمامًا مع أعمالى.

لهذا ينفع التعليم. إننى أعدك أن صبيًا بمثل ذكائك كان لا يمكنه الاكتفاء بسرقات مألوفة. والله، أنت لص المستقبل. يمكننا القول أن السنوات التى أمضيتها فى المدرسة قد خدمت طموحاتك.

المدرسة لم تعلمنى سوى الكتابة والقراءة. كان هذا التعليم الهزيل بالنسبة لى ألأمن الطرق للموت جوعًا بكرامة وفى منتهى الجهل. أنت أول من فتح عينى على هذا العفن المستشرى فى كل مكان. أن تفهم أن السرقة والاحتيال هما المحرك الأوحد للإنسانية، فذلك هو الذكاء الحقيقى. ومع ذلك فإنك لم تتلق تعليمك المدرسى. ومنذ أن التقيت بك وأنا أسرق مرتاح الضمير وجذل القلب. ولربما أقول أكثر من ذلك. لدى الشعور بأننى أسهم بنشاطى فى رخاء البلاد طالما أننى أنفق المال المسروق من الأثرياء فى أعمال تجارية عدة قد تتداعى وتؤول إلى الانهيار بدونى أو بدون أمثالى.

بدا هذا الدرس من دروس الوطنية بالنسبة لنمر والذى يعزوه أسامة إلى نفسه متجاوزًا إلى حد كبير التعليم المحدد الذى كان قد لقنه إياه.

فتلميذه كان قد كسح صراحة كافة الأفكار المسبقة المرتبطة بمهنته وصاغ لنفسه فلسفة تكرم اللص وتضعه فى مصاف المناضل الوطنى. كان نمر لا يجرؤ على الاعتقاد بها ولكن بإمعانه التفكير فيها خلص إلى إقرار صحة هذه الفلسفة التى تعلى من شأن السرقة بكافة أنواعها، فهو أمر حقيقى بالفعل أن اللصوص

يحققون تداولاً للنقود والتى لولا صناعتهم لظلت دائمًا فى الجيوب ذاتها. وضع مؤسف من شأنه أن يلحق بالغ الضرر بتجارة أى بلد. فالسرقة بنقلها للمال من جيب إلى آخر، فى حركة أحادية الجانب، تتيح بعث الحياة من جديد فى سوق بالغة الكساد. وبوصول نمر إلى حدود هذا المنطق الواقعى، شعر بأن قواه خائرة وبأن فكره، وقد أضناه السجن لعدة شهور، أصبح تواقًا للراحة. أخذ فى تأمل أسامة بعينى سائح يسبر أغوار أبى الهول انتظارًا لتجلٍّ أخير.

ولأن أسامة لم يكن يتميز بالتواضع، شعر بنفسه يتحول إلى تمثال من الذهب الخالص لإدهاشه معلمه السابق بتحليله للسرقة كفضيلة وطنية.

بوسعى أن أصبح وزيرًا لو أردت ذلك، قالها بنبرة من يتردد فى قبول وظيفة فى محل بقالة.

وصاح نمر متعجبًا:

بشرفى، لقد أصبحت مجنونًا بفعل نجاحاتك. حفظك الله من مثل هذا المشروع.

أنا لست مجنونًا وهذا الأمر لا تشوبه ذرة أى شىء مستحيل. سأسر إليك بشىء غير معقول. منذ ساعات وأنا أبحث عمن أأتمنه على هذا السر. وأود أن تقول لى رأيك فيه.

استدار ليلقى بنظرة على زبائن القهوة المعدودين وطرد ـ بمسبة شملت عائلته كلها ـ جامعًا صغيرًا لأعقاب السجائر كان يحوم حول

مائدتهما. مال على نمر وقص عليه بإثارة حامل القنابل المبتدئ قصة الخطاب الذى عثر عليه فى حافظة مقاول البناء الذى ارتكب، انطلاقًا من مكاتبه، هذه الإبادة الجماعية ضد زهاء خمسين مستأجر مساكن.

أنت ترى أن الوزير متورط فى هذه الفضيحة. ما الذى لا يدعونا للاعتقاد بأنه شريك أخيه؟ وإذا كان الأمر كذلك لماذا لا يكون لصًا بمثل كفاءتى مرشحًا للوزارة؟ وزارة المالية على سبيل المثال قد تكون أكثرها ملاءمة لى.

أنت على حق، أقر نمر، ولكنك لست موهوبًا فى الكذب. أيمكنك الكذب يوميًا وحتى فى أيام الأجازات مثل الوزير؟

هذه عادة تكتسب. أعتقد أن بوسعى تحقيق هذا الأمر تحت إدارتك يا معلمى العزيز.

انفجرا فى الضحك وأيقظا ببهجتهما ومرحهما رجلاً مسنًا كان مستغرقًا فى النوم على دكة مستندة على حائط القهوة ووجه إليهما وعظه عن الشباب الفاسق الذى لا يحترم العاملين. بيد أن هجوم هذا العجوز الذى كان يلتمس الراحة من عنائه كعامل قديم لم يزدهما إلا سعادة. انتظر نمر استغراق هذا الأخير فى نومه من جديد ليحذر أسامة من خطر الاحتفاظ بمثل هذه الرسالة التى سوف تجر عليه الشبهات.

هذه الرسالة شؤم. ماذا ستفعل بها؟

لا أعرف بعد. إنى بحاجة إلى نصيحة. ولكنى لا أعرف أحدًا ـ سواك ـ أثق به.

كل ما أستطيع أن أنصحك به هو إحراق هذه الرسالة وكلما أسرعت كان أفضل. اترك كل أولاد الكلب هؤلاء يتناهشون فيما بينهم. ما الذى يهمنا نحن من فضيحة تضاف أو تنقص؟

على أية حال، لن أحرقها. إنى آمل أن أستمد منها بعض التسلية.

سأله نمر وقد بدا الفزع على وجهه ـ أى نوع من التسلية؟ ولم يجبه أسامة. وتساءل عما إذا كانت الصدفة التى اختارته ليكون رسول فضيحة لن توحى له بحل؟. وحين انتظاره لهذه المنة من جانب المصادفة، كان يرقب بعجرفة قلقة الشعب المتسيد تحت أشعة الشمس، فى لا مبالاة للأحداث الجارية على الصعيد العالمى ولمشكلته هو على وجه الخصوص. وعلى مائدة مجاورة، تعالت أصوات مشاجرة بين عاملين بائسين عاطلين على الأرجح. وفهم أسامة من استدعائهما لأسلاف كل منهما أن أحدهما كان يريد دفع حساب الآخر وهذا ما جعل هذا الأخير يعند منكرًا على رفيقه أن يكون من عائلة أكثر ثراءً من عائلته. وانتهت المشاحنة أخيرًا بمعاهدة صداقة تنص على أن يدفع كل منهما قيمة مشروباته. وبمجرد أن تمت تسوية هذه المسألة، اختفيا من القهوة. وصرخ نمر قائلاً: -

والله، لقد ذكرانى هذان الغبيان بشجارهما الغريب بالرجل الذى يمكن أن يسدى إليك النصح. ربما لأن مسلك هذين البائسين كان سيغبطه حتمًا. إنه أغرب رجل أعرفه، ولكن ماذا يجدى حديثى لك عنه. يفضل أن تراه وتستمع إليه.

سأله أسامة قائلاً: أود لو علمت كيف تعرفت على مثل هذا الرجل؟

عرفته فى السجن. قد يبدو لك ذلك غير معقول، ولكن هناك الكثير من البشر المثقفين الذين يأسنون فى غياهب السجن فى جرائم الرأى، إنهم ثوريون يريدون تغيير المجتمع.

إننى لا أثق فى غالبية هؤلاء الثوريين. ينتهى بهم الأمر دائمًا إلى أن يصبحوا رجال سياسة رصينين ويدافعون عن نفس هذا المجتمع الذى كانوا يحقرون منه فى الماضى.

ليس الحال كذلك بالنسبة لهذا الرجل. على العكس من ذلك فهو يعمل على القضاء على كل رجال السياسة. إنه كاتب وصحفى شهير. وهو لا يعمد فى كتاباته إلا إلى السخرية من كل السلطات ومن الشخصيات الهزلية التى تتحمل عبء هذه السلطات. وقد أكد فى إحدى المقالات أن رئيس واحدة من كبريات الدول الأجنبية كان مختلاً عقليًا وجاهلاً. وهذا كلف حكومتنا بذلك حدثًا يعد من أكثر الأحداث الدبلوماسية خطورة. وقد حكم عليه جزاء هذه الحماقة بالسجن ثلاثة أشهر وبغرامة كبيرة. أقولها لك مرة أخرى؛ إنه رجل

رائع، فريد من نوعه. حتى أثناء خضوعه للتعذيب، كان يمازح سجانيه.

ولكن، لماذا تم تعذيبه؟

كان رجال الشرطة يريدون معرفة من أخبره بقصة الاختلال العقلى للرئيس المذكور. كانوا على قناعة بأنه لم يعرف ذلك من تلقاء نفسه.

يا الله يا علىّ يا قدير. قالها أسامة مقهقهًا. رجال البوليس هؤلاء لا تعوزهم روح المرح.

كيف يمكن لك أن تقول إن هؤلاء الجلادين يتمتعون بروح الدعابة؟ لقد كانوا جادين. يمكنك أن تصدقنى القول. لقد أقررت بذلك مما رأيته من آثار الضربات التى كيلت إليه. وعلى مدى أيام طويلة اجتهدوا اجتهادًا كبيرًا لمعرفة اسم هذا المخبر. وعلى سبيل الدعابة، ذكر لهم اسم صحفى متفانٍ للغاية للسلطة وهذا ما طمأنهم فتركوه لشأنه.

كان أسامة متحمسًا للغاية لتلك القصة إلى حد أن بدت له الإقامة فى السجن بمثابة ضرورة قصوى لسد القصور الذى يشوب تصوره للعالم.

إننى أغبط هذا الرجل. لطالما تمنيت أن أكون محله. فالدنو الكبير من الغباء إلى هذا الحد يمثل إثراءً هائلاً للعقل.

ظل نمر متشككًا فى مغزى أقواله. فلقد كان تلميذه القديم يدهشه بشكل متزايد ببلاغته اللغوية. وراوده الشك فى أن أسامة يدخن حتمًا الحشيش حتى يكون على هذه الدرجة من الذكاء. واستطرد أسامة قائلاً: ـ

وأنت؟ هل تعرضت أيضًا للتعذيب؟

أنا لص. الأشخاص الذين هم مصدر رزقك لا يعذبون. راتب رجال البوليس يعتمد على أفراد من عينتى. أنا لم أعتزم يومًا الإطاحة بالنظام القائم وأنا سعيد بكل الحكومات. ما من نظام واحد سيحول بينى وبين السرقة. أنا متأكد من أننى سأظل أمارس مهنتى دائمًا. وهذا اليقين لا تجده عند من يمارس أى مهنة أخرى. هل حدث أن رأيت يومًا لصًا عاطلاً؟

هذا كلام عقلانى تمامًا ـ هكذا سلم أسامة بقوله ـ اللهم لو أخضعوك للتعذيب لمعرفة من علمك السرقة.

هزت الاثنين ضحكة هيستيرية يتخللها تعجب جارح من كل الجلادين ومن موظفيهم المنكوبين. فتح العجوز النزق النائم على دكة عينيه ونظر إلى الضاحكين بحزن دون إبداء خاطرة واحدة، مما لا شك فيه بسبب إرهاقه. وكان بعض الفضوليين السذج من المتسكعين قد توقفوا أمام القهوة لتأمل هذه التظاهرة القوية من المرح الصاخب كما لو أن الأمر يتعلق بمشاهدة عرض للعرائس، عندئذ أوصاهم أسامة بالذهاب لرؤية الراقصة الشرقية التى تتلذذ بتعرية جسدها فى إحدى الكباريهات المعروفة على طريق

الأهرامات. كان هذا هو أسلوبه الساخر لحثهم على أن يغربوا عن وجهه. ثم استدار تجاه نمر قائلاً:

أين يمكن لنا العثور على هذا الرجل؟ وفقًا لما ذكرته لى هو إنسان أبحث عنه منذ زمن بعيد ـ هو أخى بالفعل. أتعرف أين يسكن؟

بالطبع. إنه يسكن فى المدافن. لقد ذهبت لرؤيته عند خروجى من السجن. لقد ورث عن أبويه ضريحًا يقيم فيه الآن حيث إنه معدم. الناشرون والصحف يرفضون كتاباته بناءً على أوامر الحكومة. ومحكوم عليه بغرامة تقدر بمئات الجنيهات. والبحث جارٍ عنه لمصادرة أملاكه. ولما كانت المدافن هى ملكه الوحيد الباقى، يتعين عليه إذن أن يعرض للبيع الموتى المدفونين فيها. أنا متأكد أنه ينتظر هذه المصادرة بفارغ الصبر.

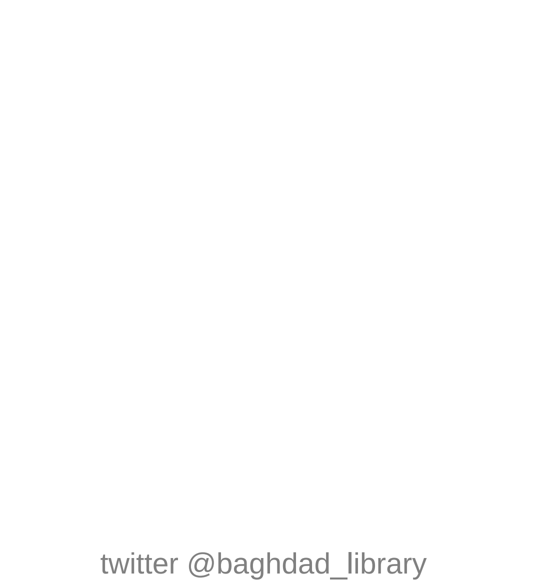
متى يمكننا رؤيته؟

فى أى وقت من أوقات النهار. فهو لا يخرج إلا فى المساء. ويمكننا الذهاب إليه فى التو واللحظة إذا لم يكن هناك ما يمنعك.

لا أنوى مزاولة عملى بعد ظهر اليوم. وعلى أية حال فإن زبائنى مستغرقون فى ساعة القيلولة الآن.

نهضا معًا فى دفعة واحدة واخترقا أقصر الطرق عبر الحارات الموحلة التى تراكمت فيها قمامة منزلية على مدار السنين كشاهد على حيوات سابقة. وعلى غير المألوف، لم يبدِ أسامة أية اضطراب

من تواجده فى تلك البيئة التى كانت تلحق الخسائر المؤسفة بأناقته الجمة. كان يتقافز فى برك المياه اللزجة ويدهس بقدم حذرة أقذارًا كريهة دون أن تقلقه اللطخات التى كانت تشوه أسفل سرواله وحذائه الجميل من جلد الأيل؛ وقد استحوذ على فكره هذا الأخ المجهول، رسول السخرية الذى يقطن أحد المدافن.



لم يكن كرم الله المثقف قد اصطفى هذا المدفن سكنًا له، الذى اشتهر عالميًا منذ أن سكنه آلاف المشردين دون استئذان، بدافع من ميله للشواهد الجنائزية للقبور أو من رغبته فى تجويد معارفه الميتافيزيقية بحواراته البارعة مع الأموات. وعلى أية حال، لم يُصدم أحد من هجمة هؤلاء المعدمين على مكان مخصص للراحة الأبدية اللهم إلا - على الأرجح - بعض المتوفين السوداويين والأعداء للجنس البشرى. كان محرك اختيار كرم الله لمحل الإقامة المتقشف هذا هو تسلط حكومة لها خاصية اللانفاذية لروح المرح وكارهة بشدة لكل معلومة لها بعض الصلة بالحقيقة. ولما كان قد حكم عليه بالسجن وبحظر النشر لسبه رئيس دولة أجنبية، فقد وجد نفسه عند إطلاق سراحه محرومًا من ممارسة أى نشاط أدبى مربح وعلاوة على ذلك معذبًا يوميًا من قِبل مجموعة من الدائنين معدومى التربية. ورغم ثقته فى النهاية الحتمية لكل مأساة، فقد بدا له أمرًا طريفًا أن يوجه ضربة قاضية لمضطهديه باختفائه دون ترك عنوان. وفى لحظة من لحظات النشوة البالغة، تذكر أنه يمتلك ضمن ميراثه ملكًا لا يجوز التنازل عنه بمعزل عن المحضرين ونهابى العدالة. وبئس الأمر، ميراث غير مدر للأموال هو مدفن العائلة

المقام فى منطقة الجبانات هذه التى اكتسبت خلال بضعة أعوام شهرة المقصد السياحى لأجانب أصابهم سأم زيارة أطلال الفراعنة. ومع اليوم التالى لهذه الاستضاءة العقلية، غادر كرم الله شقته فى وسط المدينة بمعاونة أحد معارفه من سائقى الكارو. نقل بعضًا من أثاثه إلى المدفن واحتمى فيه انتظارًا منه لتشعشع مضايقاته فى الألم الكونى الضخم. كان أحد مبادئ فلسفته يقوم على أساس أن المشاكل تُحَل من تلقاء نفسها إذا لم نعرها أدنى اهتمام. وبدلاً من أن يضعف سكن المقابر من معنوياته فقد أسبغ عليه السعادة كما لو كان بداية لمغامرة ساحرة. كانت تسعده الإقامة وسط جماهير متمردة يختلط فيها الأحياء والأموات فى جهل تام بكل سلطة. فهنا على الأقل، فى هذا الجو من الكياسة والعزاء المحتوم كان واثقًا من فراره من هؤلاء المرعبين الأغبياء الذين يطاردونه على رصفان المقاهى ليتحدثوا معه عن فشلهم الأسرى. وأخيرًا، كان يغمره شعور بالرضا لعدم مديونيته تجاه هؤلاء الملاك الأوباش. بعد سنوات من الانفصال عن أهله، كان كرم الله يستشعر لذة الإقامة مع ذويه دون أن يعكر صفو هذا اللقاء الخلافات والمشاحنات التى دائمًا ما تنشأ فى كل اجتماع بين الأحياء.

لم يكن المدفن شديد البهاء وعليه، كان يبعد النميمة والشك عن مستأجره. ولو كان بالغ الفخامة لكان قد أثار حفيظة كرم الله. فهو يدين بالولاء للمهندس المعمارى الذى صمم هذا الأثر الجنائزى بالأفق الضيق لموظف الشرطة. وقف كرم الله مدخنًا سيجارة على أعتاب الغرفة التى تتخذ منها عائلات الموتى المكلومة قاعة

استقبال. شخص ببصره إلى جبل المقطم البعيد والتى بدت خاصراته، وهى غارقة فى ضباب الحرارة، كما لو كانت أقصى أفق يبلغه نظره. كان يحلم باليوم الذى سينتقل فيه للعيش فى كوخ على أعلى قمته كالراهب الذى يتأمل البشر فى هدوء وشفقة. بيد أن هذا الحلم لم يكن إلا مشروعًا مثاليًا. فلقد كان يعرف أنه لا يستطيع الابتعاد عن البشر وعن أعمالهم الدنيئة. كثيرًا ما فكر مليًا فى تخاذل الشعوب وخضوعها لصفاقة الحاكمين الظالمين. امتنان راض للطغاة، مقارب غالبًا للورع، كان يثير فيه دهشة دائمة. وقد توصل إلى أن غالبية البشر لا تصبو إلا إلى العبودية. ولطالما تساءل ما هى المكيدة التى حاكها أصحاب الأملاك حتى ينشروا ويزهروا فى كل القارات مشروعهم الخادع الذى يتبنونه. وهنا، يلزم القول إن كرم الله كان ينتمى إلى هذه الطائفة من الأرستقراطيين الأصليين الذين أطاحوا - مثل إطاحتهم بالملابس العفنة - بكل القيم والمعتقدات التى أسسها هؤلاء الأشخاص السفلة على مر القرون لإرساء قواعد سيطرتهم. وبهذا الأسلوب لم يفسد استمرار بسط هؤلاء الكلاب العفنين لسيطرتهم على كوكب الأرض من سعادته فى الوجود. فعلى النقيض من ذلك، كانت أفعالهم الغبية والإجرامية تمثل بالنسبة له مصدرًا لا ينضب من الموضوعات الملتهبة. إلى الحد الذى جعله يعترف أحيانًا بأنه سوف يتأسف لاختفاء هؤلاء الأوباش للرضاء الشخصى الذى يثيرونه فيه ولخشيته من الضيق الذى سينطلق من أعماق البشرية لو أنها تخلصت من حشرتها.

ركدت المدافن فى هدوء مؤقت بسبب ساعة القيلولة المقدسة. حتى الأطفال ـ وقد أصابهم الخبل من جراء لعنات أمهاتهم، توقفوا عن لعبهم الصاخب ووقاحتهم المخلة بالحياء. ومن آن إلى آخر، يحمل الهواء الساخن ـ كما رشقات الأسلحة وصدى ألم يعجز عنه الوصف ـ ولولات النادبات المرتزقات المشتعلات بحمية الألم والمتفانيات بإفراط. وتحت قبة السماء الزرقاء، تحوم الحدايات فوق المقابر: كواسر سيئة الحظ، كتب عليها الاكتفاء بالبحث عن غذائها فى صناديق قمامة البؤس. مر أمام المدفن عجوز ذو لحية بيضاء يجر فى نهاية حبله حمارًا كسيحًا وألقى عليه السلام فى إيماءة خفيفة جديرة بملك فى المنفى. كان بلا شك سائق سيارة كارو عاطلاً يتنزه مع حماره ليظهر للعالم كله شجاعته فى الضراء. ولكن نظرة الحمار أثارت اضطراب كرم الله، نظرة تحمل الحزن وتحمل الاتهام، كما لو كان كرم الله هو من أصدر أوامره بهذا الانحطاط.

ألقى بسيجارته ودخل فى الحجرة للقاء زائرته. كانت الشابة قد اتخذت مجلسها أمام مكتب المعلم وطفقت تعيد فى مثابرة نقل الملاحظات التى كانت قد دونتها خلال لقائهما بعد الظهر. كانت هذه الطالبة ذات التسعة عشر ربيعًا ـ التى تدعى ناهد ـ تغذى مشروع كتابة رسالة جامعية عن فلسفته الساخرة واشتباكاته المستمرة مع سلطة جاهلة بلا رجعة، أما كرم الله الذى كان يبغض كل ما يشبه الدبلوم ـ وهو الطريق المؤكد نحو العبودية ـ فلقد ترك نفسه يقتنع ببعض الرقة، فالفتاة لم تكن جميلة وكان يجد

غضاضة فى أن يرفض أى شىء كان لكائن معيب. حتى وإن تعلق الأمر بشىء شاذ كرسالة جامعية عن أعماله. فمنذ نحو الشهر تقريبًا، كانت تأتى بعد ظهر كل يوم تفتش فى أعمق أعماق فكره كمريضة تهذى من الحمى توجه أسئلتها للطبيب. دائمًا كانت تريد معرفة المزيد كما لو كانت ستموت بعد ذلك. وكرم الله يجيب على أسئلتها الواهنة بلطف وبكثير من اللهو. فمحاولة الفتاة تكريس فلسفة مناهضة لتلك التى أرسى قواعدها مانحو الشهادات كانت تبدو له هوى شديد الخطورة على مستقبلها؛ فكل ما كان يلقنه لها عن مفهومه للعالم كان يتعارض جذريًا مع كل ما يتم تدريسه فى المدارس والجامعات. وكان على يقين أن هذا المؤلف الغريب الذى عكفت عليه الفتاة الشابة ـ لو كتب له أن يرى النور ـ سوف يكلفه على أكثر تقدير أن تعتبره الشرطة عنصرًا مخربًا تتعين ملاحظته عن قرب. إلا أنه ـ ورغم تشككه المطلق ـ كان يتمنى لها النجاح فى مسعاها الجنونى باعتماده على ما لا يمكن ترجيحه، وهذا فى أنها قد يخدمها حظها بالوقوع بين أيدى ممتحنين جهلة أو بمنتهى البساطة مكفوفى البصر. كان يتفهم تمامًا طموحها فى الخلاص من وسطها الحقير بحصولها على دبلوم ذى اعتبار. تلك الشهادة الجامعية كانت الرفات المقدس لكل المستبعدين من مجال اللصوصية الشرعية، حتى وإن كانوا لا يستخدمونها فى شىء سوى وضعها فى نعوشهم من بعد موتهم جوعًا.

بات كرم الله الآن يعرف الفتاة بالقدر الذى يمكنه من أن يتوقع لها مستقبلاً غير عادى. فى كل زياراتها له، كانت تأتى بهدايا

بسيطة غير محددة القيمة غير ذات استخدام بالنسبة له. ولأن الفتاة كانت تنتمى إلى أسرة فقيرة، فقد كان يشك فى أنها تسرقها من مختلف محال المدينة. إلا أن هذه الهبات البريئة المقصد فى ظاهرها وغير القابلة للاستعمال تقريبًا بدأت تثير قلقه بسبب المخاطر التى تتعرض لها الفتاة. لم يكن مناهضًا للسرقة وهو نشاط يحظى بإقرار دولى ومشروط فقط بمستوى المبالغ المسروقة. ولكن أن يتم إلقاء القبض عليها وأن تعرض نفسها للسجن لسرقات بمثل هذه التفاهة فذلك أغبى الكمائن على الإطلاق. مهنة السارق كانت بالتأكيد ستكون موضع اختياره هو أيضًا لو لم يسبغ الله عليه - منذ بدايات شبابه - بنعمة إدراك أن بوسعه مقاومة الغش بأساليب أكثر إرضاءً لعقله من أسلوب القنبلة اليدوية. وعلى أية حال، كان ينبغى وضع حد لهذا الفيض من عمليات النهب قبل أن يتحول مدفن والديه إلى دكان لبيع المسروقات. مسألة حساسة، كيف له أن يتحدث إلى الفتاة دون أن يميط اللثام عن قلقه بشأن مصدر كل هذه الهدايا التى تسبغها عليه؟ اقترب منها ووضع بقوة يده فوق كتفها كما لو كان يريد إيقاظها من حلم غير معقول. توقفت ناهد عن الكتابة والتفتت إليه مبتسمة ابتسامة كانت لم تزل تحمل بعضًا من الأسى الذى يشترك فيه المحرومون منذ بدء الخليقة. أحيانًا كان يبدو لكرم الله أن وجهها يكتسب نوعًا من الجمال الخاطف تحت تأثير كيمياء لا تقل تعقيدًا عن سر الخلق. أكان كسله أو لا مبالاته لا يمكّناه من كشف هذا الجمال الخفى لتلك الفتاة؟ صحيح أنه لم ينظر مليًا إليها فى لقائهما الأول خشية

اكتشافها لهذا الضيق الذى كان يستشعره دائمًا عند مواجهته لامرأة قبيحة. كان يتساءل الآن، ببعض التخوف المضحك، عما إذا كان عليه أن يعزى هذا التغير غير المعقول لجو الضريح أو ـ لمزيد من التحديد ـ لأحاديثه الهرطوقية. أن يكون جمال ناهد قد ازدهر تحت تأثير كتاباته، كان يبدو له احتمالاً مغلوطًا ومتنافيًا مع ذكائه. كانت قد روت له قصة صادقة بداهة ومستحقة لتأمل عميق؛ فلقد حدث أن جاءتها صديقتها بكتاب له فى يوم كانت فيه مريضة وكارهة لهذه الدنيا بكل ما فيها حتى اتخاذها لقرارها بالاستسلام للموت. ولمجاملة صديقتها التى أشارت عليها بهذه القراءة، أخذته من بين يديها وشرعت فى قراءته بغير حماس. فقط فى وقت لاحق، عندما انتهت من القراءة وأغلقت الكتاب استشعرت راحة كبيرة تسرى فى أوصالها. لم تعد مريضة ولا راغبة فى الموت البتة. غادرت فراشها وكلها إرادة عارمة فى الحياة وارتدت أجمل ثيابها لتخرج إلى الشارع مطالبة بهناء الخلاص. كانت تعتقد أنها قد تعلمت شيئًا بالغ الأهمية دون أن تدرى بدقة ما هو؛ وإن كانت على يقين من أن رؤيتها للعالم قد تبدلت إلى الأبد. وما هى إلا لحظات حتى أضافت: كنت كمن تحيا فى أعقاب ثورة مات فيها الطاغية وتجد الناس يبتسمون لك دون سابق معرفة لأنهم سعداء. أما كرم الله، فقد كان يعرف هو أن موت الطاغية لا يعنى نهاية الطغيان، ولكن حرصًا منه على عدم إثارة قنوط الفتاة، تخلى عن تقويض تلك الصورة الساذجة للثورة.

سوف أتركك الآن. قالتها ناهد. لقد أسرفت فى استغلال وقتك الثمين.

لا تعذبى نفسك لهذا الأمر. أنا لست ممن ينصرفون للأعمال عديمة الجدوى اعتقادًا منهم أنهم يؤدون بعض الطقوس الإجبارية. الوقت الوحيد الثمين، ياعزيزتى ناهد، هو الوقت الذى يكرسه الانسان للتفكير. إنها واحدة من الحقائق الوقحة التى يمقتها تجار العبيد.

إنه لمذهل على أية حال ألا تكون الحقيقة واضحة وضوح الشمس فى عيون كل البشر!

اهتدى بالله. الحقيقة معروفة لكل البشر ولكن أى حقيقة معروفة للكل تصبح غير ذات قيمة. هل تتصورين أن ترى هؤلاء القذرين المتحكمين فى المعلومة يبيعون حقائق. ففى أحسن الأحوال قد نسخر منهم بسبب بسيط؛ وهو أنه لا يوجد أى مستقبل للحقيقة على خلاف الكذب الذى يحمل فى طياته آمالاً عريضة.

أخذت ناهد تضحك. كانت تضحك غالبًا فى رفقته كما لو كانت تريد أن تظهر له أنها قد وعت تعاليمه، وأنها تستوعب الحياة الآن بنية أن تكون محركة لها وليست مجرد أداة طيعة. استولى على كرم الله من جديد إلهام خاطف أضاء وجه الفتاة. نظر إليها وقد امتلأت عيناه فجأة بالامتنان تجاه الصانع الخفى لهذا التحول المثير للانفعال.

فى كل مرة آتى هنا، تخفف عنى ثقلاً. ودائمًا ما أشعر بنفسى أخف وزنًا عند مغادرتى لهذا المدفن الذى أصبح بالنسبة لى مكانًا ساحرًا يبدو فيه كل شىء يسيرًا للغاية.

خطا كرم الله بضع خطوات جهة الباب وتأمل الممر الخالى تحت الشمس ثم عاد أدراجه نحو الفتاة. وقال بلهجة الدعابة:

هل تعرفين أن حمارًا يتضور جوعًا، كان يسوقه صاحبه إلى المذبح، قد رمقنى منذ قليل بنظرة اتهام؟

أتسخر منى يا معلم! كيف لك أن تعلم أنها كانت نظرة اتهام؟

لأنه يكفينى أن أرى امرأة عجوزًا يشق عليها السير أو رجلاً مصابًا بعجز مخيف أو حتى مجرد طفل يبكى حتى أشعر بالذنب إزاء كل ما يحدث لهم. وأعتقد أنه حيث إننى شخصيًا لا أعير أى أهمية للألم؛ فإن ألم الآخرين يبدو لى كاستنكار دائم لوقاحتى. ولكن لنترك الحمار لمصيره ولنتحدث قليلاً عنك. منذ بعض الوقت، أفكر فى أن أقول لك إنك لست مضطرة لإحضار كل تلك الهدايا فى كل مرة تأتين فيها لرؤيتى؛ فأنا لم أعد أعرف ماذا أفعل بكل هذه الثروة التى سوف تجعل هذا المدفن يشبه المتحف عما قريب.

ولكنك غنى يا معلم. فكل ذهب الأرض لا يمكن أن يزيدك ثراءً. فما تطلق عليه اسم هدايا ليست سوى دليل صغير على الصداقة فى مواجهة النسيان. أعلم أنك سوف تزيد فى السخرية منى ولكن، مع كل احترامى لك، أعترف بأننى أخشى اليوم الذى سأختفى فيه من ذاكرتك لحظة انتهائى من عملى.

لماذا أنساك؟ سوف تظلين دائمًا ضيفًا كريمًا فى بيتى سواء فى هذا المنزل أو فى أى منزل آخر. إذن، قولى لى من أين جاءتك تلك الفكرة الساذجة؟

ترددت ناهد فى الإجابة. امتعضت أساريرها واستعاد وجهها مظهره الكريه تدعيمًا منها لاعتراف مكدر. وأجابته وهى تتحاشى نظرته لها:

هذا... هذا لأنى أعلم أنك لا تحب إلا الفتيات الصغيرات السن والرائعات الجمال. أما أنا فعجوز وقبيحة. لهذا كنت أعتقد أنك سوف تتلاشى عندك الرغبة فى معاودة لقائى.

أنهت جملتها وهى تنظر إليه مباشرة فى عينيه انتظارًا منها لحكمه.

اجتاحت كرم الله - وبدون إنذار - الدهشة ثم شعور بطىء بالندم. تبكيت ضمير على فظاظة غير واعية. ألم يجرح الفتاة الشابة بموقفه المتعالى أو لربما قد خان دون إدراك منه؟ لقد عرضت نفسها للسجن لتترك له ذكرى منها، وهذا ما لم يكن بمقدور كرم الله أن يمحوه بأى نوع من أنواع السخرية.. وقال، وقد اتخذ مظهر الممثل غير المتأكد من حفظ نصه عن ظهر قلب:

اعذرينى لو لم أثنِ أبدًا على مظهرك. - قالها بلهجة الممثل غير الواثق - فهذا الأسلوب الخسيس فى إغراء النساء قد نفرنى دائمًا. ولكن ما دمت تريدين التحدث فى هذا الموضوع، فإننى أريد بحق أن أقول لك إنك أكثر من جميلة ووجهك وإن بدا عاديًا يحمل بعض

الغموض المشيع للاضطراب والذى لن تملكه أبدًا أى من الفتيات اللاتى تتهميننى بحبهن. هل أنت راضية الآن؟ وهل تصدقيننى؟.

إننى أصدق كل ما تقوله يا معلم، حتى وإن بدوت مازحًا....

اغتبط كرم الله داخليًا. ولقد نجا بنفسه لتوه من واحدة من هذه الأحبولات اللاتى تعرف النساء وحدهن كيفية حياكتها والتى تعجز كل الفلسفات القديمة والحديثة عن تحليل آلياتها. ودفعه نجاحه فى فك شباكها بمثل هذه البراعة إلى أن يسوى دون تأجيل مسألة لياقة ظلت طويلاً معلقة بينه وبين الفتاة الشابة. كانت تغيظه بصفة خاصة باتخاذها مظهر التلميذ الخاضع والمحترم لأستاذه حيث إن كرم الله كان يحتقر مديح مجتمع لا يدين بالاحترام سوى للنصابين؛ فكل توقير لشخصه كان يتأثر به تأثره بالإهانة المستترة. فلا شىء ولا أحد يستحق أساسًا، من وجهة نظره، أدنى تبجيل. وفى هذا المدفن الذى اجتاحه بؤس وشقاء الأحياء، مما أحط من شأنه، كان يرى أن الأموات لتكتمهم وصمتهم هم وحدهم الجديرون بالاحترام.

ناهد يا ابنتى! أنت غير مدينة لى بأى إجلال. فالبشر جميعهم يعتقدون أنهم جديرون بالاحترام أو يصبون إليه. كونى لطيفة ولا تخلطى بينى وبين هذا الجمع من الفاسدين.

منذ أن ألمح كرم الله لناهد بالسحر الغامض لوجهها، ظلت عيناها مثبتتان فى الفضاء كما لو كانت تتأمل نفسها فى مرآة وهمية. وقد انتزعها مطلبه من هذا التأمل الرائع.

أبدًا لن أخلط مطلقًا بينك وبين أى إنسان. ولكن الا أُكن لك احترامًا أنت جدير به فهذا أعتبره وقاحة من جانبى.

هذا بالضبط ما أريده. أن تكونى وقحة. فهذا ما سيبعث الحياة بعض الشىء فى أحاديثنا؛ فاحترامك لى يرهقنى بل يضجرنى.

نهضت ناهد ولملمت كراساتها لتصفّها فى محفظة كتب من الجلد الاصطناعى ثم انحنت رسميًا أمام كرم الله مستهلة بهذه المحاكاة الساخرة عهد وقاحتها الفتية. كانت ترتدى فستانًا من القطن الأسود وبلا أكمام: رداء رمزيًا تغامر به فى المدافن. كان كرم الله يود لو قال لها إنه لا داعى لارتداء الحداد لدخول المقابر، إلا أنه امتنع عن هذا القول خشية أن يكون هذا الثوب هو كل ما تملكه الفتاة. تبعها بنظره حتى الباب ورآها تبتعد وقد أخذت شكل الشبح الأسود والهش فى ضوء الشمس الباهر وهى تؤرجح محفظتها وكأنها سلاح ضد غدر الزمان.

كان كرم الله على وشك مغادرة مدفنه، عندما رأى رجلين يسعيان إليه فى هذا الممر المغبّر. تعرف على أحدهما، رغم تغير ملامحه الذى لا طائل منه، على أنه نمر، هذا النشال الشهير، هذه المعرفة القديمة والمسلية منذ العهد الذى أُلقى به فى غياهب السجون. كان برفقة نمر شاب مرتدٍ لملابس آخر صيحة، يبدو عليه الكسل ويسير كالسائر فى نومه المُتعجل للارتماء على فراشه. وبداهة، جاء الرجلان بنية زيارته، فلم يكن يسبقهما أى موكب جنائزى. انتظرهما إذن انتظار من هو على يقين بأن بعد الظهر

يحمل إليه العديد من المفاجآت والأحاديث المضحكة. لقد بعث نمر فى نفسه الكثير من المتعة حال إقامتهما سويًا فى نفس الزنزانة؛ فهو - رغم جهله - حكيم حقيقى يتحدث بثقة وتعالٍ عن حياته العملية المضطربة كسارق سيئ الحظ أو معلم شهير للشباب الجانح. ولكن، من عساه يكون هذا الشاب غريب الأطوار؟ ولأى سبب خفى يخاطر نمر بنفسه - وهو الذى آثر الاختفاء من زمن - بمصاحبته لهذا الشخص القادر على استثارة قاطنى المكان بهيئته الشديدة التأنق. وبسبب مواجهته لهذا اللغز لم يعد كرم الله يشك فى أن هذه الزيارة سوف تجلب له كثيرًا من المتعة.

بلغه الرجلان حتى أصبحا أمامه، وانحنى نمر كمن يقدم رأسه الحليق قربانًا للمعلم. كان كرم الله يمثل بالنسبة له الحقيقة السامية، تلك الحقيقة التى تكافحها كل أمم هذا العالم كفاحها لفيروس معدٍ. ظل على انحنائه برهة ثم رفع رأسه ليقول بصوت رجل حزين أنهكته لطمات القدر:

آسف لإزعاجك يا معلم؛ فالأمر استثنائى. اسمح لى أولاً أن أقدم لك واحدًا من تلاميذى القدامى الذى حقق نجاحًا باهرًا فى مهنة تتعرض جورًا وظلمًا لكل احتقار.

كنت سألحظ هذا الأمر من تلقاء نفسى. قالها كرم الله متهكمًا. يتعين أن يكون المرء أعمى حتى لا يلحظ هذا النجاح. إنه ليوم سعيد بالنسبة لى أن أستقبل مثل هذا الشباب المزهو بالانتصار.

ماذا تنتظر يا ابن الكلب لتحيى معلمك؟ قالها نمر بلهجة آمرة وقد اعتزم إثبات سطوته على تلاميذه القدامى مهما كانت ذروة فنهم التى بلغوها.

اقترب أسامة من كرم الله مصافحًا وقد تملكه قلق من يدنو من أحد وسطاء الوحى.

إنك لا تزعجنى أبدًا يا عزيزى نمر. يجب عليك أن تعلم ذلك. قالها كرم الله مستطردًا. بل إننى أستطيع أن أقول لك إن الأمل كان يحدونى نحو زيارة كزيارتك. ففى الوقت الحالى، تعدم الأخبار تمامًا أية أحداث مثيرة للغبطة. لا فضيحة مالية ولا حرب أهلية ولا اغتيال سياسى. إنه الفراغ بحق. حتى أننا قد نرجح أن كل القذرين قد ماتوا أو سافروا لقضاء العطلة. فلتدخل إذن. أهلاً بك وبتلميذك النجيب.

تنحى كرم الله جانبًا للسماح بمرور زائريه. تردد أسامة لبرهة ثم ما لبث أن عبر سريعًا عتبة المدفن بانطباع من يدخل نهائيًا فى عالم آخر. وقد أصابه الذهول الشديد من لطف كرم الله ويسره فى دعوتهما لدخول المدفن؛ حتى لنخاله أميرًا يستقبل فى قصره وفدًا جاء لإعلامه بآخر أخبار المملكة. أما نمر، الذى لم يشعره البتة هذا المسكن العشوائى بالاغتراب، فكان يصف كرم الله — ودون انخداع ـ بالكائن الفريد. كان الشاب يقر طواعية بأن هذه الشخصية ليست مميزة فحسب ولكنها تتطور فى وسط يتواءم معها ببراعة. أبدًا لم يتخيل أن يأتى اليوم الذى يتواجد فيه فى مثل

هذا المكان تحت سمع وبصر مجهول ساخر وإن كان قريبًا شديد القرب. لماذا قبل بمثل هذه السهولة أن يتبع نمرًا فى حملته هذه؟ ألم يكن هو بالأحرى الذى ساق أستاذه السابق وليس العكس؟ وقنع بأن قوى يجهلها منطقه قد أسلمته إلى هذا المكان للقاء بالغ الأهمية. وأثار هذا المنظور المتوقع فى نفسه سعادة قلقة.

اجلسا. قالها كرم الله مشيرًا إلى الأريكة التى يتخذ منها فراشًا. أما هو، فقد آثر الجلوس على مقعد مكتبه.

كان أسامة يتنفس بارتياب لخشيته من رائحة الجثث التى ووريت الثرى على مقربة منه، وبخاصة من أن يصيبه التلوث بفعل الميكروبات المفترض تجوالها فى الغرفة. استغرق الأمر بضع لحظات للاعتياد على الموقف. بساطة شأن قطع الأثاث المبعثرة من حوله وكم الكتب الهائل المكدس فوق المكتب بعثا فى نفسه الطمأنينة. وعلى أية حال، هى حجرة تماثل غيرها من آلاف غرف النوم فى أى شقة من شقق المدينة. نسى المدفن ونسى الموتى لدراسة ضيفه كيتيم يسبر بعينيه أغوار متقدمين للتبنى ليختار من بينهم أبًا له. كان يتفحص رجلاً يبدو فى قرابة الخمسين من عمره رغم الابتسامة الطفولية الماكرة التى تكسو وجهه الأجرد المتهلل دائمًا حتى لنحسب أن سعادة استثنائية تسكنه تطبيقًا لما يقضى به مرسوم إلهى. لم يكن يرتدى سوى مئزر حريرىّ أصفر اللون وقد وضع قدميه الحافيتين فى خف من الجلد الأحمر. بساطة تلك الثياب أرغمت أسامة على الاعتراف بأن مضيّفه يفوقه وقارًا ورفعة

رغمًا عن تشكيلة البزات الباهظة الثمن التى اقتناها من أشهر خياطى العاصمة. وانطلاقًا من هذه النتيجة التى خلص إليها شعر بالبؤس المبهم.

إذن، ما هذا الأمر الاستثنائى؟ سؤال طرحه كرم الله وهو يتفرس فى وجوه زائريه وحالته المزاجية سعيدة كالمنتظر للإعلان عن ميراث يؤول إليه.

أجابه نمر بلكنة المدرس وقد سُهى عليه غافلاً أنه لا يوجه حديثه لسارق تحت التدريب، إنها واقعة تعرض لها تلميذى النجيب الذى تراه حاضرًا إلى جانبى هنا. لقد أشركنى فى انشغال باله وعدم تيقنه. ومن الطبيعى أن أفكر فى أنك الشخص الوحيد القادر على إسداء النصح لى؛ فهى مسألة تتطلب عقلية مستنيرة لما يحف بها من أخطار متعددة. وبالاختصار أقول: إنها قنبلة.

أنصت إليك بكل ما يتطلبه الأمر من اهتمام. قالها كرم الله وقد أدهشته بحق هذه البداية.

سلّى أسامة نفسه سريعًا من هزيمته أمام التفوق الجمالى لكرم الله وإن بقى على ارتباكه. كان يبذل محاولاته لفهم السبب الذى يجعل كرم الله منتشيًا لهذه الدرجة من قصة لا يعلم لها أية بداية. وتذكر أن مضيفهما قد استقبلهما لدى وصولهما كمن ينتظرهما منذ أمد طويل للبدء فى احتفالاته الغريبة.

ـ هيا. قص حكايتك على المعلم. قالها نمر بلهجة آمرة لتلميذه السابق. وكن متواضعًا. لا تفتخر كثيرًا باتصالاتك فى المجتمع الراقى. اختصر الأمر فقط فيما قصصته علىّ.

حان الوقت لأسامة لسرد مغامرته على المعلم. قصها عليه بأسلوب بارد ودقيق وإن أبدى ملاحظاته وبعض التفصيلات بشأن أخلاقيات المدعو سليمان، ضحيته، ومقاول البناء الذى ارتكب بنجاح كارثته المروعة.

- أرنى هذا الخطاب. قالها كرم الله وقد اجتاحه إغراء متزايد. لم يكن واهمًا، فبعد ظهر هذا اليوم ينبئ بأنه سيكون مسليًا للغاية.

أسرع الشاب بإخراج الخطاب من جيبه ومده إليه بكل ما أتاه الذكاء من ثقة. استولى كرم الله على الخطاب وأخذ فى قراءته. ومع تقدمه فى قراءته أضحى وجهه يعبر عن رضاء بالغ مولدًا بذلك الانطباع بأنه يقرأ رسالة غرامية لمحبة مراهقة من نسل نبيل. استغرقته القراءة وقتًا طويلاً حتى خال زائراه المعلم لا يمل لذة الاستمتاع بهذه الرسالة. وأخيرًا قال كرم الله مقهقهًا:

هذه الرسالة عسل! بالتأكيد هى لاتعلمنى شيئًا عن مقاول الخراب هذا الذى يذيع صيته كمقاول فاجر. إلا أننى لم أكن أعلم أن شريكه، هذا الشقيق الضال للوزير والمعروف جيدًا فى وسط النصب المشروع، يمكن أن يكتب هذا الأثر الأدبى الذى ينتمى إلى الكوميديا السوداء. إنها تثير غبطتى لعدة أيام قادمة.

بقى نمر على حاله من الترقب لبرهة من الوقت ثم كسا ملامحه شعور بخيبة الأمل الذى يستشعره سارق الحلى الثمين حين اكتشافه أنه سقط متاع. خلص كرم الله إلى أن مسألة بهذه الخطورة ما أوقدته ذكاءً وما زادت من هيبته لدى تلميذه القديم.

ولطالما أراد هو أن يبرهن لمعلمه أنه يتردد على أشخاص مثقفين وعلى علماء قادرين على فك طلاسم أكثر المشاكل وعورة، إلا أنه لم ينجح بهذا الخطاب - المتفجر المضمون - إلا فى أن يقدم له ملهاة. لم يفقد الأمل رغم خيبة أمله وأومأ لأسامة - وقد خبله عدم الفهم - بإشارة تدعوه للتحلى بالصبر.

كنا نأمل، يا معلم، فى أنك ستقول لنا ماذا نفعل بهذا الخطاب. قالها نمر مغامرًا بقوله هذا. هل ستدفنها فى هذه المدافن أم ستلقى بها كالقنبلة فوق المدينة؟ ألا تعتقد أن الصحف ستدفع مبالغ طائلة فى مقابل شراء نسخة من تلك الرسالة؟ إن رائحة الفضيحة الكبرى تفوح منها.

يا أخى نمر، أنت قمة فى مهنتك ولكن اسمح لى أن أعلمك أن هذا الخطاب لن يثير أدنى فضيحة. فاللصوصية فى أعلى طبقات المجتمع حادث طارئ مقبول فى كل دول العالم. ألفها الشعب إلى درجة التصفيق لما تمثله من مفخرة. وأنا أرى أنه ينبغى البحث عن شىء آخر؛ شىء مبتكر وبالأخص ممتع. أن تهدى هدية كهذه للأغبياء أمر لا طائل منه. لنحتفظ بها لأنفسنا.

ما الذى تقترحه؟

ما زلت لا أعلم؛ فهذه المسألة مضحكة إلى الحد الذى ينبغى عليها أن توحى لى بحل عظيم. أكثر الحلول إضحاكًا إن أمكن.

بعث هذا التصريح الارتياح فى نفس أسامة الذى كان يتبرم من أن كرم الله لم يأخذ قصته مأخذ الجد بالقدر الكافى. أخيرًا، تعهد

المعلم ـ بطريقته، هذا صحيح ـ بإيجاد حل للمشكلة التى آثارتها الرسالة. حل ممتع كان من الممكن أن يصدمه وإن كان قد بدا له ـ يا للغرابة ـ جذابًا وغير مفتقد لبعض من القسوة المدمرة. وهكذا، فإن هذه الزيارة لهذا المدفن النائى الذى ساقته إليه جولته فى الشوارع الموحلة لن يكون مآلها إلى الفشل. كان قد بدأ يقع تحت سطوة السحر الخفى لمضيفه دون تمكنه من تفسير هذا التهلل الداخلى العظيم لشخص يعيش فى مدفن. كيف لبيئة على هذه الدرجة من الكآبة أن تثير فيه ـ بخلاف اللامبالاة ـ هذه الحيوية الفياضة فى خدمة السخرية؟ لقد كان يحمل مؤشرًا لذكاء ينمو ويتطور فى مجال متحرر من كل الأفكار المسبقة الحمقاء التى تكدر حياة البشر. وأدرك بغتة كيف كان غبيًا لعدم تمكنه من اكتشاف الجانب الهزلى فى الآلام التى عصفت بطفولته، ومن المؤكد أن كرم الله كان رسول كفاح طريف ومبتكر ضد وكلاء الخداع المعتمدين.

ارتسمت على وجه كرم الله ابتسامة تنفس من خلالها الصعداء لاستشرافه إمكانية حل هذه الأزمة ذات البعد الوطنى. كان قد أوكل دائمًا ثقته للصدفة. فقد تأكد له حين استقباله لضيوفه منذ قليل، أنهم يجلبون إليه من العاصمة الصاخبة بعض نسخ غير مسبوقة من الغباء البشرى التى من شأنها تسليته. ولكنه لم يتوقع هذه الوليمة. وإذا به يقول:

أود لو التقيت بهذا المدعو سليمان. حتى أنه يهيأ لى أن التحاور معه سيكون مجديًا إلى حد الإمتاع. عيد حقيقى للعقل. وهنا قال نمر قلقًا: ـ

ما الذى تقصده؟

رجل قادر على إبادة خمسين شخصًا بغشه فى مواد البناء، لا لشىء إلا لتكديس مزيد من الأموال، ألا يبدو بالنسبة إليك شخصًا عشوريًا؟

اقتلنى يا معلم، ولكن اشرح لى والله.

اسمع، هذا الرجل يمثل العار الكونى. حتى الآن لم أكن أعرف عنه إلا صورته فى الجرائد، ولكن بفضل هذه الرسالة الربانية، ربما سنحت لى الفرصة كى أراه عن قرب. دائمًا مقاربة العار نتعلم منها الشىء الكثير.

ما الذى يمكنك أن تتعلمه من هذا الشخص عديم الشرف؟

يا عزيزى نمر. هذه فكرة مسبقة يستلزم التخلص منها فى صناديق القمامة. لتعلم أن الشرف مفهوم مجرد اخترعته، كما جرت العادة دائمًا، طبقة المهيمنين حتى يتمكن أفقر الفقراء من التفاخر بامتلاكه هذا الشىء الهلامى الذى لايكلف شيئًا لأى إنسان.

تبًا لك. قالها نمر وهو يصرخ. لقد جردتنى للتو من الشىء الوحيد القابل للبيع الذى كنت ما زلت أملكه. بهذا أصبحت أكثر فقرًا مما كنت عليه قبل مجيئى إلى هنا.

أعترف أننى لا أرى أدنى علاقة بين تعبيرى عن الشرف وبين فقرك المفاجئ.

فقال نمر موضحًا ـ حسنًا لقد سمعت كثيرًا الناس يقولون إن شرفهم ليس للبيع. كنت أظن أنه سيأتى اليوم الذى يقترح علىّ فيه أحدهم شراء شرفى. لقد حرمتنى لتوك من أعظم صفقة مربحة فى حياتى.

لا تقلق. بوسعك دائمًا بيع شرفك. فلم يعلم كل الناس بعد بهذا الأمر. فنحن الذين على دراية بهذا الموضوع لا نتعدى حفنة أفراد. أظن أنك مطمئن الآن.

إننى أشاركك الرأى. قالها أسامة وقد تخلى عن تحفظه. لقد تعلمت أشياءً كثيرة فى وقت قليل حتى أننى سأغادر هذا المكان أكثر ثراءً وإن كنت بلا شرف. ولكن ما للشرف من أهمية طالما نعمت بقرب شخص مثلك.

نظر إليه كرم الله كمن يراه للمرة الأولى. كان ذهنه ملبدًا من هذه الرسالة التى عرضت عليه فى حينها لاستلهام فطنته حتى أنه قد نسى هذا الحاذق الذى أعطاه إياها. كان هذا السارق الشاب واحدًا من تلاميذ نمر البائسين تمكن من الفكاك من بؤسوية معلمه ليكون ملقنًا لإستراتيجية ثيابية تتيح له سرقة الأثرياء. وقد اعتمد فيها ـ بفطرته ـ على نقيصة مجتمع يقوم على المظهر. وكان هذا يجعله مستحقًا لتقديره.

أعرف أننى أستطيع الاعتماد عليك. كلمات وجهها كرم الله إلى ضيفه الشاب بهذا الود المتدفق الذى يخص به من هم من ذات سلالته. بداية، يمكن استخدام هذه الرسالة لممارسة الضغط على

سليمان لإرغامه على الموافقة على لقاء اجتماعى بحت فى أحد مقاهى المدينة. من المفيد دائمًا عقد حوار مع هذه النوعية من الأشخاص. فهذا يعلمنا أنه ما للعار من نهاية ولا من حدود. فأجاب أسامة قائلاً: ـ

أنا طوع أمرك. ماذا عساى أن أفعل؟

تعال غدًا للقائى. سوف نضع سويًا مخطط حرب مرحة ضد مقاول الخراب الشؤم هذا.

أكون على سجيتى تمامًا فى هذا النوع من الحروب. قالها أسامة مبشرًا وواعدًا.

رفع نمر ذراعيه إلى السقف كمن يبتهل إلى الله، إلا أنها كانت حركة طبيعية يؤديها أمام كل ما هو غير محتمل. كان مغتاظًا من هذا التواطؤ السافر والغامض بين كرم الله وتلميذه القديم.

لم يكن عاطف سليمان، مقاول الإبادات الجماعية الحضرية غير المتميزة، يحمل شارة العار مكتوبة على جبينه، إلا أن هذا الإهمال من قبَل الطبيعة لم يكن يحول دون قيام هذا العدد الهائل من سكان العمارات التى شيدتها شركته العقارية بصب لعناتهم عليه فى كل ساعة من ساعات الصباح أو المساء؛ هذا بخلاف بعض المتطرفين الذين كانوا يطالبون بموته الفورى. غير أن هذا القدح الصادر عن غوغاء متذمرة تفتقد أى ثقافة اقتصادية تمكنها من إعطاء جمال الرأسمالية حق قدره لم يكن يصيب أبدًا من يستهدفه. كان يقطن فى أبهة حى الزمالك السكنى الذى يبعد عدة كيلومترات عن المدن الجديدة المقتطعة من الصحراء والتى كانت مسرحًا لصناعته المربحة. وقد أصابت الآثار الفرعونية الصلبة البنيان والأزلية سليمان بالسأم حتى جعلته راغبًا فى أن يصبح مقاول عصر البنايات المؤقتة ـ شعار التحضر ـ والتى لا تورث للخلف إلا ردمًا وترابًا. وبعبارة أوضح منازل غير قابلة للصيانة. وكان الانهيار السابق لأوانه لإنتاجه الأخير قد قدم دليلاً دامغًا على هذا التحضر البهى، فمن بين الركام والأنقاض كانت ترقد جثث زهاء خمسين من البشر أدركوا نهاية وجودهم الحقير دون أدنى إنذار مسبق. ورغم

آن سليمان كان لا يميل إلى تصديق الخرافات إلا أنه أبدًا ما كان يغيب عن ذهنه، عند إعداده لمقايساته غير القابلة للمنافسة، أن يقحم عامل القدر. وقد أصابته هذه الكارثة المروعة والنحس على سمعته بالحيرة لمباغتتها. ما هذا القدر الذى يهرع لإثبات ذاته دون أن يعير اهتمامًا للدمار الذى خلفه سوء تصرفه المفاجئ؟ ألم يكن بوسعه انتظار التوقيت المناسب قبل أن يهاجم بخسة مبنى طلاؤه لم يجف بعد وافتتحه وزير منذ ثلاثة شهور على أكثر تقدير؟ قدر مريب كان سليمان يشك فى وجود علاقة بينه وبين مؤامرة حاك خيوطها أعداء له أصابهم نجاحه فى مقتل وأوغر صدورهم ضده. كان يعتقد دائمًا فى المثل الشعبى الذى يشبّه الثراء بالعسل الذى يجذب إليه الذباب. وفى حالتنا هذه، كان الذباب سامًا وقد نفث سمه لمرات عديدة من قبل فى الصفحة الأولى من صحيفة مستقلة بل والأكثر من ذلك ـ وهذا نادر على المستوى العالمى ـ نزيهة ولا يمكن رشوتها. اتهم سليمان بالرشوة وبكافة أشكال الغش ومثله مثل كل نظرائه، كان يصدها عنه بالإشارة إلى شرفه كما لو كان يشير إلى حجة لا تفند؛ مُلمّحًا بأنه ساعة وقوع هذه الممارسات الإجرامية، كان برفقة شرفه. فسوء نيته كان يتجاوز بكثير المعايير المعترف بها فى مهنته حتى أنه كان يثير إعجاب وغيرة منافسيه الأكثر اعتدالاً.

البحث المهووس عن مشيع الاضطراب فى برنامج عقارى مكتوب عليه أن يبلغ ذروة مجده لم يكن ينتقص البتة من غلواء غضب سليمان ضد شريكه، شقيق الوزير. هذا الإنسان الجبان

والغبى الذى جرؤ أن يرسل له خطاب قطيعة ملىء بالتلميحات الخطيرة والذى سقط الآن بين يدى شخص مجهول. ويرجح أن يكون ابن القرعة هذا مختفيًا عند عشيقته، راقصة شرقية عجوز شمطاء يوفر لها حياة مرفهة من إنفاقه عليها بسخاء فى مقابل ما تسديه إليه من خدمات جليلة تتراوح فيما بين المشروع وما هو غير المشروع. والحق، إن تحول واحدة من أجمل إنجازاته إلى أطلال حرب والخمسين ضحية المزمع براءتها، لا تمثل إلا حلقة ـ مؤلمة بالطبع ـ من سلسلة طويلة وإن كان إيلامها ليس بالقدر الذى يضر بأعماله. فالمجزرة يلحقها دائمًا ـ عاجلاً أو آجلاً ـ مجزرة أخرى مذهلة بشكل أكبر.

فكر سليمان، وقد تمكنت منه الحكمة، أنه لا شىء يمكن أن يوقف مأساة قررها القدر. كان يأمل فى أن يقوم القدر بإخراج قطار من القضبان أو بإشعال حريق فى إستاد رياضى. وقد آثر هذا الاحتمال الأخير بسبب كتلة المعتوهين التى تتردد على هذه النوعية من الأماكن. وبالتالى، فإن حدث ذلك لكانت هناك آلاف مؤلفة من بقايا بشرية متفحمة تُظهر الموتى الخمسين ـ ضحايا كارثته ـ عددًا هزيلاً يكاد لا يذكر.

تخلى سليمان عن مضارباته الفكرية السفيهة حول حوادث قاتلة غير محتملة على النطاق الدولى وعاد إلى مشكلته الرئيسية الوحيدة والفريدة: مشكلة الرسالة الشهيرة؛ فإفشاء سر هذه الرسالة المعنونة باسم الوزير، على أى نحو، سوف يكون إيذانًا

بنهاية عهد التعاون المثمر للغاية مع موظفين بارزين. كان عبد الرازق قد نجح، باستغلاله لصلة قرابة مع الوزير، فى أن يجعلهم يخرجون عن الطريق المستقيم ليسلكوا دروبًا متعرجة وإن كانت مبلطة بالأحجار الكريمة. وقد عزم، فى حالة استرداده للرسالة، أن يذهب إلى عشيقته لإحضار ابنه البائس الذى رزق به من أم حولاء ليدلله ولربما ليعهد به إلى بيت للبغاء فتح أبوابه حديثًا لا يتجاوز عمر أكبر المقيمين فيه ستة عشر عامًا. فقد يغير هذا قليلاً من سنته مع راقصته الشرقية الشمطاء ويكسبه بالتأكيد مزيدًا من اللين. لم يكن أمام سليمان الاختيار. وكان على أهبة الاستعداد لاستخدام كل أشكال الدناءة حتى يجعل عبد الرازق يتخلى عن قراره بإنهاء التواطؤ القائم بينهما: بل وحتى أن يقول له إنه سيجعل منه وريثًا له وهذا بوسعه أن يكون كذبة بغيضة؛ فمصدر كراهيته لهذا الوغد كان بعيدًا عن أن ينضب. فهيهات لم ينس أن هذا الشخص قد كتب خطابًا وقحًا بأسلوب قذر لا يصدر إلا عن عريجى ولا يهدف إلا إلى أن يشينه. وفى قمة مأساته، كان عليه الاعتراف بأن عبد الرازق عنصر رئيسى لتشغيل شبكات الفساد هذه والتى لا يستطيع بدونها تصور إجرائه لعملية واحدة، له هو على أية حال. ولو رضخ وعمل فى مجال العقارات بأسلوب الحرفى النزيه؛ فلسوف تتهاوى أرباح شركته إلى المستوى الذى يحققه صانع القلل.

اتصل به مجهول - على الأرجح شاب يقول إنه طالب دون أن يذكر تخصصه - لتحديد موعد فى مقهى شهير فى حى الحسين

الشعبى، يدين بشهرته إلى زبائنه؛ وهم خليط من المفكرين والشحاذين الفلاسفة بل وأيضًا بعض الفاعلين البسطاء فى الحياة دون أى تخصص واضح. كان سليمان قد اتخذ مجلسه فى شرفته العظيمة لليالٍ طوال فى تلك الفترة التى كان لم يزل يعد فيها العدة لإنجازاته المستقبلية فى مجال السرقة المخططة والشرعية. زعم الشاب أنه قد عثر على خطاب يحمل عنوانه على رصيف شارع طلعت حرب وأنه قد التقطه لتحقيق الهدف النبيل بإعادته إلى مالكه. كان يتحدث عن الخطاب الضائع فى ذات وقت حديثه عن المحفظة - وإن كان لم يذكرها صراحة - ويعد بإعادته له فى لقائهما القادم. وبدون شك، كان يأمل فى أن ينتزع منه مبلغًا من المال فى مقابل هذا الاسترداد، وهذا ما كان سليمان على أتم الاستعداد لتقديمه له بغير مناقشة. إلا أن هذا اللقاء كانت تفوح منه رائحة الشك العفنة مع ما يحمله من عبارات غريبة وملزمة حرىٌّ بها أن تدفع بالطفل الوليد إلى الارتياب الشديد. أولاً، اختيار الليل موعدًا له، كما لو كان لقاءً بين متآمرين. وثانيًا، هذا الحى الشعبى الذى يعد أرضًا خصبة لكل المناورات المشبوهة. والأنكى من ذلك، هذا الوجود المثير للقلق لهذا الشخص الذى أعلن الطالب المذكور أنه راغب بشدة فى التباحث معه فى موضوع اجتماعى بحت. ولكن فيم يريد التحدث معه؟ شاهد إضافى فى هذه المسألة ولن نلبث أن نرى المدينة كلها، التى لم تكن تنتظر إلا هذا الحدث للسخرية والاستمتاع، لا يخفى عنها شىء بشأن معجزة ثروته. لأى غرض شيطانى أسر له الشاب بأسراره؟ سؤال ما برح ينهكه مثل هذه الألغاز الباقية بلا حل منذ قرون.

وكما هو الحال بالنسبة للمرأة القبيحة التى لا تزداد قبحًا مع تقدم العمر، لم يتعرض حى الحسين لتدهور إضافى مع مرور السنين. ركن سليمان سيارته فى مكان بعيد للغاية عن مكان اللقاء، ثم سار فى الليل الذى تضيئه أنوار المقاهى والدكاكين ومشاعل الباعة الجائلين أكثر منها مصابيح الحكومة التائهة فى أعماق الحوارى الموحلة. هيئ إليه أنه لم يغادر هذا الحى إلا البارحة، طالما تعرف على بعض الأكواخ بذات الشقوق فى جدرانها وعلى بعض الحفر التى تزين الأرصفة ولا سيما تلك الحفرة ـ التى لم تزل نشطة ـ والتى أوشك بسببها أن تبتر ساقه فى هذا الزمان السحيق والمنسى. على النقيض من ذلك، ما كان يذهله حقًا ويمثل بالنسبة له شيئًا جديدًا يتعذر فهمه هو جو السعادة الذى كان يستشعره من حوله والذى كان يبدو متحديًا لصورة البؤس التى عادة ما تكون كئيبة. غير أنه لم يكن يوم عيد. أغضبه كثيرًا مناداة كل هؤلاء الأشخاص لبعضهم البعض وتراشقهم بالنكات وقهقهتهم بالضحكات كما لو كان مبعث السعادة فى نفوسهم هو مجرد وجودهم على قيد الحياة. حث الخطا بدافع من رغبته فى ألا يفسد نفسه فى خضم هذه العربدة من الصراخ والنقاشات المملة المرحة؛ فلقد كان يرى فى هذه البهجة الراعدة إهانة لغبطة الأغنياء الرقيقة. وفى حانة لمصفف شعر، رجل وضع قدميه الحافيتين فى خف وقد ترك لحيته للحلاقة على أيدى صبى حلاق شاب يرتدى لباس حمام. مشهد هذا الصعلوك المسكين وقد أخلد إلى هذه المتعة المترفة بأن يطرى وجهه فى هذه الساعة المتأخرة من الليل أزكت

الشعور بالغضب فى نفس سليمان وأوحت إليه باحتمالات متعددة بشأن دوافع هذا اليائس. فهذا الرجل يحلق لحيته استعدادًا للقائه مع عشيقة مغفلة - بالقطع مغفلة - فى حانة مشبوهة بأحد الضواحى. والافتراض الثانى - وهو مأتمى لطيف - أن الرجل قد أخطر بأنه سيموت أثناء الليل ويرغب فى أن يتقدم إلى عتبة الجنة وهو نظيف المظهر ومثير للإغراء. ظل متحيرًا من هذا المسلك الغريب لمدعى الفن هذا المنتمى لأحياء البؤساء حتى جاءت اللحظة التى اقترب فيها للتحدث معه هذا الصبى الذى يبلغ زهاء السنوات العشر والمرتدى لثوب جديد لونه أصفر وقد بدا عليه نفاذ الصبر البالغ لمعرفة الوقت.

رمى سليمان الصبى بنظرة متقززة وانطلقت الكلمات من فمه كالبصقات.

لماذا تريد معرفة الساعة؟ ألديك موعد؟

لا، ليس لدىّ موعد. أجابه الطفل.

إذن فيم يفيدك معرفة الوقت؟

أبدًا، كان ذلك لمجرد الحديث معك. إنى أبحث عن أبى.

لا أفهم. ما العلاقة بين أبيك والساعة؟

سأشرح لك. لقد هجرنا أبى، أمى وأنا، عندما كنت بعد صغيرًا جدًا. أنا لا أعرفه. أمى تقول إنه سوف يعود يومًا وإنه بالغ الثراء. لذا، فى كل مرة أرى فيها رجلاً مثلك يشبة الأثرياء فى هيئتهم، أعتقد أنه لربما كان هو.

ـ ماذا كانت مهنة والدك؟

ـ كان لصًا، قالها الطفل بافتخار.

ـ اغرب عن وجهى أيها الخسيس. أنا لست بأبيك.

ـ ياخسارة. أنت تشبهه تمامًا.

حاول سليمان أن يركله ولكن الطفل فر منه، اختفى فى وسط الزحام.

بات لا يطيق سيره ليلاً فى هذه الأماكن المثيرة للاشمئزاز والتى كان قد طردها من ذاكرته منذ زمن، ليستبدلها بهذه الزينات المترفة للفنادق الكبرى والمشروبات الكحولية المرتشفة حول حمامات السباحة الفخمة. ومن جديد، فكر فى عبد الرازق، المسئول عن هذا الضيق الذى يعيش فيه، وتمنى لو أنه رأى أمه وهى فى التسعين من عمرها تعمل بالدعارة فى بيت بغاء مخصص لمرضى الجذام، وهى أمنية لطيفة مقارنة بما يدخر له المستقبل. وفجأة، توقف لينصت لصوت قادم من مكان ما وإن كان يعرفه منذ طفولته. كان المذياع يطلق الألحان المدللة لهذه المطربة الأسطورية التى سيظل صوتها يرافق ولأمد بعيد الرجال فى شطحاتهم وفى حبهم الظمئ.

كانت قهوة المرايا قد فقدت القسم الأعظم من بعدها التاريخى ولم تعد تشغل إلا حيزًا ضيقًا من الرصيف. فقط بضع مرايا تناثر عليها العفن ظلت معلقة على الحوائط فى أطرها المذهبة كأطلال

لماضٍ اندثر ودليل على هوية هذا المقهى. لم يصب هذا التدهور سليمان بالاستياء، فلقد كان يتوقعه. تفنن فى أن يظهر بمظهر اللطيف والطيب القلب قبل أن يلتقى بالشاب المجهول الذى تواعد معه تليفونيًا. كان هذا الأخير قد أكد له بأنه سيتعرف عليه بسهولة، فهو قارئ نهم للصحف وكثيرًا ما أعجب بصورته وهى تتصدر الصفحات الأولى عند الحديث عن فضيحة مالية أو اتهام بالقتل مع سبق الإصرار والترصد. ورغم أن هذه الإخبارية قد اتسمت بالطرافة والوقاحة المبهمة إلا أنها قد بعثت الطمأنينة فى نفس سليمان بشأن الوسط الاجتماعى لهذا الشاب ومستوى ثقافته. فإذا كان الشاب يعرف القراءة فهذا معناه أنه سيتصرف بأسلوب شريف ومحترم أمام شخص يكبره عمرًا. فسليمان كان يؤمن بالثقافة، رغم عدم حصوله هو شخصيًا على أى قدر منها. وهذا الشخص المجهول يراه بالفعل معجبًا به وخاضعًا له بل ومخلصًا له كل الإخلاص. سلك طريقه على رصيف المقهى وقد اشرأبت عنقه ومط شفتيه فى مظهر سلطوى كما لو كان يتخذ وضعًا للتصوير أمام مصور صحفى بغرض دعاية عقارية.

لمحه أسامة وهمّ بأن يلوح له بيده إلا أن كرم الله قد منعه. كان المعلم يريد مراقبة هذا الدنىء - عن بعد ولبرهة من الوقت - فى سيره وفى مشيته وفى هيئته وسط جماهير مشبعة بشكل خاص بعدم احترامها للثراء، فكان هذا المشهد المذهل؛ سليمان يسبر أغوار الرصيف بالعين الثاقبة لرب العمل الباحث عن عمال عاطلين للتشغيل ليفاجأ بأنه ليس أمامه إلا زمرة من التنابل ليس

وراءها شىء تفعله أفضل من تدخين النرجيلة ولعب الطاولة أو الذم فى الحكومة مع إطلاق قهقهات عالية. كل هؤلاء الأشخاص الذين يتبخترون فى التموع والبطالة كانت لديهم موهبة إثارة حنقه. كان يعطى الانطباع بأنه رجل وقع فى هوة سحيقة وينتظر ناجين غير متوقعين. وأخيرًا، انتصب أسامة واقفًا ودعاه للحضور لاتخاذ مكانه على طاولته. رؤية الشاب رسخت وجهة نظر سليمان الصحيحة بشأن تعليمه والمستوى الاجتماعى لأسرته. وعن قرب بدا الطالب المزعوم مرتديًا لثياب بالغة الأناقة والرجل الذى يكبره بسنوات متخذًا لمجلسه إلى جانبه كمن ينافسه فى فن الأزياء. إلا أنه كان هناك ما يشذ عن هذا التقديم ويثير الريبة فى نفسه. فبرفقة الرجلين الحاصلين على هذا التقدير، كان هناك رجل ثالث حليق الرأس ذو لحية سوداء تكسو نصف وجهه. شخصية ترتدى ثوبًا من الحرير غير المغلى مفتوحًا عند العنق ونظارة سوداء تجعله شبيهًا بقاتل مسرحى. وكان يخشى أن يؤدى هذا الضيف غير المنتظر إلى إثارة الاضطراب فى الحديث المثالى الذى تصوره سليمان. وبات ملحًا معرفة السبب الحتمى لوجود هذا الدخيل الناشز فى وسط هذا الجمع. فلو كان لمجرد مراقبة حيادية للأمور لأمكننا اختيار من هو أفضل. تقدم أسامة ـ قلقًا ـ صوب المائدة التى ينتظره عليها هؤلاء القائمون المدهشون على هذه اللعبة الهزلية.

أهلاً وسهلاً! قالها كرم الله مرحبًا. ياله من شرف! اجلس. نهارنا عسل! اسمح لى أن أقدم نفسى لمعاليك؛ اسمى كرم الله وهذا هو الأستاذ نمر وصديقنا الشاب أسامة الذى ندين له بسعادة

لقائك البالغة. شخص على درجتك العظيمة من الشهرة لا يحتاج لأن يعرف بنفسه. أنت معروف فى العالم بأسره. هل أنا مخطئ؟

أنت لطيف جدًا. أنا لست جديرًا بكل هذا التقريظ. أجاب سليمان دون رفع عينيه عن نمر. أيحق لى أن أسأل عما يدرسه الأستاذ نمر؟ على ألا تعتبروا ذلك تطفلاً منى.

إطلاقًا. يسعدنى أن أخبرك أن الأستاذ نمر يدرس علم الاجتماع. هذا رغم أنه فى إجازة حاليًا فى أعقاب أزمة عاطفية.

أتقول، علم الاجتماع؟ لقد سمعت عنه. ما هو هذا العلم؟

علم الاجتماع هو علم البقاء على قيد الحياة فى المجتمع. قالها كرم الله مردفًا. الأستاذ نمر يعلّم الصبية كيف يتصرفون فى الحياة؟

حفظه الله. إنه رجل خير. لم يسبق لى أن التقيت برجل مثله فى شبابى.

على العكس من ذلك، أرى أنك كنت محظوظًا للغاية. قالها كرم الله بلهجة من تصدر عنه الحكمة والأحكام الصائبة.

لماذا إذن؟ سأله سليمان وقد أصابته الحيرة أمام هذا الاستبصار المتأخر بعض الشىء.

لأن أيًا من تلاميذه لم يصبح ثريًا، لهذا كنت أقول إنك كنت محظوظًا.

هذا أمر مؤسف. لابد وأن هذا الفشل العام له ما يفسره.

انخرط سليمان فى حديثه إلى أبعد ما كان يرغب. إلا أن الظروف لم توفر له أى مخرج. كان محدثه يوجه دفة الحديث فاعتبر أنه من غير اللائق لو قام بعدم تتبعه فى استرسالاته المتعجلة بعض الشىء. والحديث بعد فى بدايته مما كان يفرض عليه إظهار الود والتفاهم بل وحتى القدرة على العطاء. ولهذا الغرض، كان قد جاء حاملاً معه مبلغًا من المال قام بحسابه بحكمة وحصافة مع احتفاظه بنية وضعه على الطاولة فى الوقت المناسب لإشعال الصفقة. الأمور لم تكن قد تغيرت فى ذهنه والمسائل تسير على ما هى عليه وإن كانت فقط مع شركاء آخرين. واستأنف كرم الله حديثه قائلاً:

أعلم أن صديقى نمر سوف يعذرنى ولكن بدت تعاليمه لى وكأنها يعوزها بعض الشدة. كان يدعو تلاميذه للفضيلة واحتقار المال والتواضع عند مشاركتهم فى بناء مستقبل هذا العالم. أيمكن أن تقول لى، فخامتك، يا من على دراية بعثرات ومصاعب التجارة، أيمكن أن يصبح المرء ثريًا بالفضيلة؟ إنى أتوجه إليك بهذا السؤال الرئيسى الذى يعود بنا إلى أبعد الأزمنة السحيقة، لأن هذا هو السبب الذى سعيت من أجله إلى رؤيتك.

نظر سليمان دواليك إلى رفقائه الثلاثة على أمل أن يتلقى من أحدهم إشارة أو إيماءة تضعه على طريق الإجابة الشافية. إلا أنهم بدوا مستمتعين بتردده. ثم قال أخيرًا كمن يعتذر: ـ

إن الأمر أكثر تعقيداً من ذلك.

إجابة رائعة! قالها كرم الله صائحًا. أشكرك على تفضلك بالإجابة بها. ولكنى لم أكن أنتظر منك أقل من ذلك، فخامتك.

اندهاش كرم الله لم يكن متصنعًا. فقد تملكته حقًا المفاجأة أمام مثابرة واتساع فكرة حمقاء كان يتصور أنها غير قادرة على أن تزهر فى أرض مشمسة. وهكذا عبرت هذه الفكرة العتيقة المحيطات والحدود، وهى التى أطلقها مفكرون مشهورون ترجع أصولهم إلى بلدان باردة نادوا من خلالها بتعقد العالم وغرابته، لتستقر وتقبع هنا فى مخ هذا اللص الحقير على ضفاف النيل. كانت دناءة إنكار الطابع الفردوسى البسيط لهذا العالم تخدم مصالح القادرين لتبريرها الإخفاقات التى تعانى منها الجماهير الجاهلة. احتج كرم الله بكل ما أوتى من قوة حبه للحياة ضد هذه المعلومة المضللة والمفسدة.

أبوسع فخامتكم أن تحدثونا عن نجاحكم الشخصى؟ قالها أسامة مقترحًا. ينبغى أن أعترف لك أنه بمثابة السحر بالنسبة لى. وهنا قال سليمان مؤكداً: ـ

ما من سحر فيها. إن التفانى فى العمل هو أساس نجاحى.

قال كرم الله: ـ ما أجمله من نجاح! ولكن للأسف بات هباءً منثورًا بفعل هذه الكارثة المروعة. إننى لآسف لما أصابك. إنه قدرك السيئ وإلا فأنا لا أفهم شيئًا. أم لربما كان لديك تفسير آخر.

أنا نفسى آسف جدًا لما حدث. يمكنك أن تصدقنى القول. ولكن ليس بمقدورنا صد الكوارث الطبيعية. إنها لعنة تأتى على الأخضر واليابس. ولذلك فإننى لا أتذمر مما حدث.

كوارث طبيعية، ماذا تقصد بذلك؟ قالها كرم الله وكله اندهاش.

حفظك الله من موقف مماثل. من كان بوسعه توقع حدوث زلزال فى ليلة صيف هادئة؟ إذن، هذا ما حدث. اهتزت الأرض مخلّفة سرًا خفيًا حول مدينة نصر. ولن ندرى أبدًا كيف ولماذا كنت ضحية هذا التقلب من تقلبات الطبيعة؟!!

زلزال؟ أين وقع هذا الزلزال؟ سأله نمر مندهشًا وقد خلع عنه نظارته لتفهُّم الحدث برؤية أوضح.

انزعاجك لا طائل منه. قالها كرم الله متوجهًا إليه بالنصيحة. لقد نجونا من هذا الزلزال لأنه لم يشرفنا بالمرور فى نواحينا. أعتقد أنه افتقد بعض الفطنة تجاهنا.

بدا لسليمان هذا الحديث الفكه لكرم الله مليئًا بالتلميحات كما لو كان دحضًا ماكرًا للرواية الجميلة التى قصها لتوه عليهم.

كيف؟ أما كنتم تعلمون؟ أجاب سليمان بمظهر المذهول الذى هاله جهل محدثيه المروع بمثل هذا الخبر المرعب. صحيح أن مدينة نصر بعيدة بعض الشىء إلى الحد الذى لا نستطيع معه سماع ما يدور فيها، ثم إن الحكومة قد صرحت للصحف برغبتها فى عدم إفشاء هذا الخبر حتى لايعلم الشعب شيئًا عنه؛ إلا أننى اعتقدت

أن أشخاصًا بمثل ثقافتكم قد نما إلى أسماعهم هذا الخبر من خلال أحاديث بعض دوائر المفكرين الهازئين الباحثين دومًا عن الفضيحة. فأجابه كرم الله:

لا. كما ترى، حتى أناس على هذا القدر من الثقافة مثلنا لم يكونوا على علم به. إلا أنك قد أثلجت للتو صدورنا؛ فأنا ورفاقى سعداء لمعرفتنا أن السبب الحقيقى وراء انهيار هذا المبنى هو كارثة طبيعية وليس مواد بناء مخالفة. فالشهداء الذين قدموا أنفسهم قربانًا ووريت أجسادهم أطلال هذا المبنى لن يلوموا إلا غضب الطبيعة.

بشرفى، إنها الحقيقة بعينها. قالها سليمان مؤكدًا. وعلى كل فقد أكدها اثنان من الخبراء استقدمتهما من الخارج لاستبعاد شبهة الغش. وبالفعل، قاما بفحص كل الأنقاض وبتحليل الهواء المحيط بالموقع إلى أن انتهيا إلى أن الحادث قد وقع بالفعل نتيجة زلزال. وقد كلفانى أموالاً باهظة بحيث لا يمكننى إلا أن أعلق أهمية كبيرة على ما خلصا إليه.

الاحظ - قالها أسامة مردفًا - أن الزلازل تقع دائمًا فى أكثر مناطق العالم فقرًا. وهذا ما يطرح التساؤل عما إذا كانت الطبيعة تبغض الفقراء.

هذا دليل فحسب على أن الطبيعة تتعامل بنفس قذارة البشر مع الفقراء. أقر كرم الله بهذه الحقيقة ثم استطرد قائلاً: إلا أنها أفكار طائشة ولا تهم إطلاقًا ضيفنا البارز.

إنه لمن أقل القليل أن نقول إن كرم الله كان منتشيًا من هذا اللقاء الذى نظمه على أمل تعلم شىء غير مسبوق عن الخزى فى كامل أبهته. فإعجابه بالسخرية الإبداعية لمالك العمارة المنكوبة أصابه بالذهول، وبدعته فى أن الزلزال الانتقائى هو الذى استهدف عمارته بدت له بمثابة تقدم حاسم فى التاريخ الطويل للحقارة البشرية. كل ما كان يخشاه كرم الله هو عدم تمكنه من السيطرة على سخريته إلى حد إثارة الضيق فى نفس سليمان وجعله يضع حدًا لهذه المأدبة الفكرية.

كان سليمان يعتقد أنه قد خدع كرم الله ورفاقه بلجوئه، كما هو الحال دائمًا، إلى القسم بشرفه وبات ينظر إليهم بادعاء من أثبت الخبراء الأجانب براءته؛ فسكونه ورصانته فى هذه الحياة أساس دعمه فيها استخفافه بقدرة البشر على فهم أكاذيبه بل وربما عدم وعيه بها. لم يحدثه أحد عن الرسالة ولم يكن يفهم معنى صمتهم إزاء هذا الموضوع كما لو كان أمرًا مشبوهًا. كان يجهل أنه كان من المحتم على أسامة ـ وفقًا لتعليمات معلمه ـ ألا يتناول هذه المشكلة إلا فى أكثر الأوقات تأخرًا لا لشىء إلا لإدامة هذه المتعة. وما أن شعر الشاب بأن فتح باب النقاش حول هذه المشكلة بات أمرًا ملحًا إلا أن سليمان سبقه إلى ذلك، مقررًا فجأة أن الوقت قد حان للاهتمام بهذه الرسالة المخزية ـ التى حررها هذا الشهير الغبى وذلك بتوجيهه الخطاب مباشرة إلى أسامة، المالك المزعوم لهذا الشىء.

أيتعين علىّ أن أذكرك بأننى هنا للحديث عن موضوع بعينه؟ أنا على أتم استعداد لأن أستجيب لأى اقتراح من جانبك لاسترداد هذه الرسالة. وهنا، سأله أسامة:

عن أى اقتراح تتحدث؟ ليس لدىّ أى اقتراح أعرضه عليك.

أخشى ألا تكون قد فهمت ما أقول. أكرر أننى مستعد لدفع مبلغ معقول. لا عليك إلا أن تحدد رقمًا. نحِّ الحرج عن نفسك، فأنا شخص متفهم للغاية.

كيف لك أن تعتقد أن صديقنا الشاب سوف يذل نفسه ليتلقى منك مبلغًا من المال! قالها كرم الله ساخطًا. أنت مغرور لجهلك بأصله. إن أسامة أمير وقد نشأ فى الحرير وتغذى على الشهد. إلا أنه على درجة عالية من التواضع المفرط الذى يحول دون حديثه عن لقبه. وهو يفضل أن يكون مجرد مواطن.

اعذرنى. لم يكن بوسعى أن أخمن ذلك. قالها سليمان متمتمًا وقد ناله من التأثر ما ناله من جراء خطئه الفاحش.

أبوه الأمير محسن اضطر إلى اللجوء بعد الثورة، إلا أن القصة قد باتت درامية عندما علمنا بانتحار الأمير. لقد قتل نفسه لعدم استطاعته العيش بعيدًا عن بلده. هكذا استطرد كرم الله فى حديثه وقد بدت له قصة حياة أسامة الجديدة مسلية جدًا.

وقع سليمان ضحية ولعه بالكذب حتى بات على أتم استعداد لتصديق أى شىء. فتوجه بحديثه إلى أسامة بكل الاحترام الذى يدين به لخليفة عائلة ملكية حتى وإن كانت مُنحلّة.

إن كان الأمر لا يتعلق بالمال، فيم يتعلق إذن؟ أود لو عرفت.

أبدًا، لا يتعلق بشيء. أجاب أسامة، الذى أصبح أميرًا بفضل كرم الله، وهو يحاول أن يتشرب دوره الجديد. حقيقة، بوصفى طالب هندسة بقسم العمارة، أود من خلال هذا اللقاء أن أناقش معك ـ وأنت المقاول الشهير الذى تمثل بناياته المذهلة مجد بلادنا ـ مشكلة معاصرة يحتدم بشأنها جدل عاصف حاليًا فى الجامعة. أينبغى علينا تشييد بنايات لفترة غير محدودة أو لفترة متوسطة محدودة بعدة سنوات؟ ولكم عام؟ إنه سؤال يذهب بالعقل أليس كذلك، عشر سنوات أم عشرين سنة؟ لا يوجد أى اتفاق حول هذه النقطة. كنت آمل أن أستوضحها منك بما لك من خبرة فى هذا المجال ولربما كان بوسعك أن تسدى لى بعض النصائح التى تزيد من ثقلى بين زملاء الدراسة.

نحن لسنا فى عهد الفراعنة. أجاب سليمان مزهوًا للاعتراف به كأحد خبراء فن العمارة. رأيى، إذا كنت تحرص على معرفته، هو أنه ينبغى البناء لفترات محدودة وإلا لوقعت الكارثة وانهارت إلى الأبد سوق العقارات.

لماذا إذن؟ سأله أسامة وقد بدت عليه علامات الاهتمام وأرهف السمع كما لو كان يريد أن يلتقط كل كلمة فى هذا الدرس العظيم.

إنه المنطق ذاته. إذا بنيت عمارات بغرض الدوام، سوف يأتى اليوم الذى لا تجد فيه أراضىَ شاغرة تشيد عليها غيرها. انظر إلى الأهرامات. لن يجول بخاطر أى إنسان فى هذا البلد فكرة بناء ولو

هرم واحد؛ فالمكان مشغول منذ أربعة آلاف عام. وعلى النقيض من ذلك، نقوم ببناء أهرامات فى الخارج. حتى أنها أصبحت أحدث صيحة فى فن العمارة الحديث.

اجتاح سليمان، بعد أن لقن معمارى المستقبل درس الحداثة، شعور بالفخر الذى يشعر به المجرم المحنك والمتجاوز لكل شعور بالرضاء والقناعة. بدأ بالإحساس بالراحة رغم الغموض الذى لم يزل مكتنفًا لمصير رسالته. أما أسامة، فقد وجده على درجة عالية من الجاذبية ـ سواء عليه أكان أميرًا أم لم يكن أميرًا ـ تجعل منه الابن الذى لم يستطع أن يخلفه. دفعه هذا إلى التفكير فى عائلته وفى زوجته التى أصبحت بمثل بدانة مغنية الأوبرا من كثرة تناولها للحلويات وفى ابنته أنيسة التى تعامله على أنه لص وترفض ماله بحجة أنه يأخذه من جيوب الفقراء. من أين كانت تريد لى أن آخذه؟ كانت تقول إنها تدرس القانون للدفاع عن البشر ضد أشخاص من عينته وإيداعهم السجون. أقضى كل هذه السنوات الماضية فى تكديس الثروات بتوفيرى فى حديد التسليح لأستمع فى النهاية لمثل هذا الهذيان على لسان وريثتى الوحيدة؟ إن هذا كفيل وحده بإماتة حتى القاتل. إلا أن هذه الإقامة القصيرة بفكرة بين ذويه، لم تترك فى نفسه أى أثر من آثار المرارة؛ فكلمات امرأة ما سوف تظل لأبد الآبدين خالية من أى معنى. وعاد من جديد إلى الهدف الأول لوجوده فى هذه القهوة ولكن بمقاربة جديدة هذه المرة، ممتعة لغروره. وقد حدا به الأمر إلى الاعتقاد أن البطء المهيمن على هذا اللقاء وغموضه لا ينمّان عن أى سوء نية، بل

يتفقان مع رغبة رفقائه المتأججة فى تمديد المحادثة توخيًا لمتعة الاستماع إلى حديثه. متعة كان يتقاسمها معهم. وبلا أدنى تردد، استأنف عرضه لمزايا البنايات المؤقتة، موضحًا بذلك عدم مناهضته لأى حديث تعليمى.

كنت أقول إذن إن بعض العمارات يجب أن تختفى لتترك مكانها للبنايات الجديدة.

كيف تختفى، بمستأجريها؟ ألح كرم الله بمكر.

بالطبع لا. فنحن لسنا همجيين.

هل يمكن أن يشرح لى معاليك كيف إذن يمكن تصور مثل هذا الاختفاء؟

إنها مسألة معايرة. يجب أن نحسب حسابًا دقيقًا لعمق الأساسات وسمك الحوائط والحرص بصفة خاصة على عدم إهدار حديد التسليح، كما لو كان بذرات البطيخ.

إنك رجل مدهش. قالها كرم الله. كيف استطعت العيش حتى اليوم دون معرفتك. الحمد لله، هكذا، أصلحت عيبًا وداويت نقصًا.

أنا لست إلا مجرد خادم للوطن.

إن الوطن سوف يدين لك بخدماتك. أجابه كرم الله متنبئًا بما سيكون عليه الأمر فى المستقبل. عسى الزلازل تثبت فاعليتها بعيدًا عن عماراتك.

إنها دعوتى فى كل يوم. قالها سليمان مؤكدًا.

ومع تقدم الليل وتشبع هواء الرصيف بالدخان المعطر للحشيش المختلط بتبغ النرجيلة، أخذت الأحاديث تشتعل والشعور بالنشوة يحتدم من حولهم. لم يكن لأسامة صرامة كرم الله ولا قدرته على التحكم وبدأ يصعب عليه كبح مشاعر سعادته. كان لديه الانطباع ـ كما لو كان فى حلم مرعب ـ بأنه لم يعد يستطيع أن يمنع انفجاره من الضحك أكثر من ذلك. كان مكلفًا بمهمة مآلها تألق مرعب بالنسبة للرجل صاحب البنايات المؤقتة تستلزم من ناحيته موقفًا يتفق مع وضعيته كطالب انتحل مؤخرًا مسئولية الأمراء. كان محظورًا عليه أن يسلم نفسه لمباهج السخرية حتى تحين اللحظة التى يتعين عليه فيها أن يكشف لسليمان النقاب عن المصير الذى ستؤول إليه رسالته. كان شبابه المضطرم يحثه على عدم تأجيل تلك اللحظة لأكثر من ذلك وهو يتساءل إذا كان كرم الله قد تعلم ما يكفى من صاحب المقام الرفيع، هذا المنتمى إلى رتبة المجرمين، أو إذا ما كان يرغب حقًا فى أن يقتات من كل ألوان العار.

بدا سليمان وكأنه قد حزر ما بأسامة من ملل ومن أمنيته فى الخلاص من هذا كله؛ فتوجه بحديثه مباشرة إلى هذا الشاب:

وإذا ما تحدثنا إذن عن الرسالة يا أمير. أفترض أنها معك. قالها بلهجة ودودة وإن كانت حازمة، فأجابه أسامة:

إذا كنت تعتقد أنها معى، فهذا صحيح. هى معى. وحتى بأسلوب لن تستطيع أبدًا تخمينه.

حسنًا، أرها لى. قالها سليمان بشىء من العصبية. كان يبدو عليه التشكك فى أن شيئًا غريبًا يتم الإعداد له ضده وأن هذا الشىء سوف يعصف وبلا رجعة بوضعه الهادئ كمواطن لا يمكن المساس به.

الأمر ليس بهذه البساطة. أجابه أسامة متملصًا. كما لو كان يتحدث إلى طفل يضجره بأسئلته. لماذا تعجلك إلى هذا الحد؟ ألا تعجبك صحبتنا؟

قاوم سليمان نفسه وبدا كمن يفكر. فحديثه مع الأمير يكتنفه غموض متزايد وهو يشعر أن قدراته العقلية تترنح أمام هذا الكم الهائل من التملصات والألغاز المتكررة.

يجب، على كل حال، أن ينتهى بنا الأمر إلى التفاهم. أنا لن أظل هنا طوال الليل رغم السعادة التى أشعر بها فى صحبتكم. أنا رجل أعمال ووقتى محسوب. أرجوك أن تنتهى إلى أن تقول لى ما الذى تطلبه لتعيد إلىّ هذا الخطاب.

لقد أجبتك. لا أريد شيئًا. هذه الرسالة أحملها معى ولن أتركها أبدًا. هى بمثابة الحجاب والتعويذة بالنسبة لى، فمنذ أن عثرت عليها وأنا لم أعد أخشى شيئًا. أترك لك أن تحكم بنفسك؛ ففى نفس اليوم الذى التقطتها فيه من فوق الرصيف، أوشكت أن تدهسنى سيارة أجرة كانت تسير ـ كعادتها ـ والأمل يحدوها فى حصد أرواح بعض المارة. عندئذ أدركت أن السحر المنبعث من تلك الرسالة هو من أنقذنى من هذه الميتة الشنيعة.

ما هذا التهور! أحظر عليك أن تخالف الصواب برسالتى.

فتح أسامة قميصه وأظهر جرابًا من الجلد مربوطًا فى عنقه بسلسلة رفيعة من الفضة.

ها هى رسالتك. إنها هنا. أنا لم أزل شابًا صغيرًا ليكون لشرفى مصداقية. ولهذا أعتمد عليك لامتلاك شرف شرعى ومعترف به من كل السلطات، أستخدمه كعذر فى حالات البؤس.

تمكن الغضب من سليمان وبات وجهه محتقنًا وضاربًا إلى الخضرة، قريب الشبه ببالون منفوخ بنفثات جهنم. انحنى على الطاولة وتحدث بلهجة تهديد ليس لأسامة فحسب بل لكل الثائرين فوق كوكب الأرض.

قل لى يا أمير، ألست لصًا؟

انتصب أسامة واقفًا وانحنى بشكل رسمى متحدثًا بصوت متواضع ومتشنج:

لص صغير للغاية مقارنة بمعاليك!

انفجر نمر ضاحكًا وقد أطلق ضحكة لا تضاهيها ما عداها من الضحكات، ضحكة ثورية، ضحكة من اكتشف لتوه الوجه البغيض والهزلى لأقوياء هذا العالم.

* * *

النهايـة



المؤلف فى سطور:

البير قصيرى

كاتب فرانكوفونى مصرى الجنسية، من مواليد ٣ نوفمبر ١٩١٣ بحى الفجالة بالقاهرة وتوفى فى باريس فى ٢٢ يونيو ٢٠٠٨، تلقى تعليمًا فرنسيًا بمدرسة الفرير بالظاهر ثم بمدرسة ليسيه باب اللوق. بزغت مواهبه فى الكتابة وهو بعد فى العاشرة من عمره واستقر فى باريس منذ عام ١٩٤٥فى فندق لويزيانا بمنطقة سان جيرمان دى بريه بالعاصمة الفرنسية. ولم يبرحه حتى وافته المنية فى عام ٢٠٠٨ .

تدور غالبية أحداث روايات ألبير قصيرى فى مصر مسقط رأسه. والكاتب يفيض حبًا جارفًا لبلاده رغم سخريته فى حديثه عنها. وله روايات عدة أشهرها: «معدمى الوادى الأخضر» و«المنسيون من الله»، علاوة على «ألوان العار» التى يجدها القارئ بين يديه الآن، وقد أخرجت المخرجة السينمائية المصرية أسماء البكرى روايتين من روايات قصيرى للسينما المصرية «شحاذون ونبلاء» (١٩٩١) و«العنف والسخرية» (٢٠٠٤).

المترجم فى سطور

أ. د. منار رشدى انور

أستاذة للأدب الفرنسى بكلية الألسن جامعة عين شمس وحاصلة على دبلوم الترجمة من جامعة السوربون بباريس. وهى تمارس الترجمة الأدبية والقانونية ولها إصدارات متنوعة نتيجة لتعاونها المثمر مع المجلس القومى للترجمة وقسم الترجمة التابع للسفارة الفرنسية بالقاهرة، وقد عزز من تشبع المترجمة بالأدب الفرنسى عملها كملحقة ثقافية بالسفارة المصرية بباريس فى الفترة من ٢٠٠٤ إلى ٢٠٠٧ .

ترجمت للمركز القومى للترجمة رواية چان دورسون «لاشىء تقريبًا عن كل شىء تقريبًا» ٢٠٠٩ .

المراجع فى سطور:

منى على كمال صفوت

حاصلة على الدكتوراه عام ١٩٧٨ من كلية الآداب جامعة عين شمس قسم اللغة الفرنسية.

حاصلة على درجة الأستاذية عام ١٩٩٠، رئيس قسم اللغة الفرنسية - بكلية الآداب جامعة عين شمس من عام ٢٠٠٢ وحتى ٢٠٠٦ .

أسست قسم الدراما فى كلية الآداب جامعة عين شمس عام ٢٠٠٦ وتولت الإشراف عليه.

من أعمالها:

١ - ترجمت ٦ كتب للمسرح التجريبى.

٢ - قامت بمراجعة أكثر من ١٢ كتابًا مترجمًا.

٣ - قامت بترجمة كتاب للمركز الثقافى الفرنسى.



تتنوع ألوان العار وتتعدد أوجهه باختلاف الزمان والمكان، خيانة الوطن عار، الفرار من الجندية عار، القتل عار، ممارسة البغاء عار، السرقة عار، كلها جرائم أخلاقية مشينة وبغيضة وحقيرة تنال من شرف الإنسان ومن سمعته أمام القانون وأمام الرأى العام.

فى هذه الرواية يسلط ألبير قصيرى الضوء على "ألوان العار" التى اجتاحت أرض الكنانة فى عصر الانفتاح، والتى تركزت فى شره تكديس الثروات بأساليب ملتوية، والذى جعل اللصوصية غير مقصورة على النشالين، هؤلاء اللصوص غير القانونيين، بل امتدت لتشمل رجال الأعمال والأغنياء وصيارفة البنوك الذين يصفهم الكاتب باللصوص القانونيين.

ترسم الرواية صورة الانهيار والانحدار والفوضى فى شوارع القاهرة مع روح الفكاهة التى تكفل وحدها لأهلها بقاءهم على قيد الحياة وهم محتفظون بكرامتهم. خلفية تبرز عليها عدة شخصيات منهم أسامة النشال المؤمن بضرورة إسهامه فى إعادة التوزيع العادل للثروات، وكرم الله الذى يعيش فى المقابر إلى جانب آلاف غيره اتخذوا منها ملاذاً لعدم مقدرتهم على حل مشكلة السكن.

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح